حلمي محمد القاعود

محضرُ غش

رواية

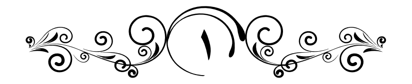
١٤٤٠هـ = ٢٠١٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

[فاطر: ٢]

♦♦♦



رأيته على شاشة الفضائية يرتدي بزةً فخمةً أنيقةً، فقلت في سري «سبحان المعطي الوهاب»...

كان يتحدث عن الإنجازات والتحديات، وراح يفسرُ ويحللُ، ويتكلمُ عن فيروس سي الذي يقتحمُ أجسامَ المصريين بلا رحمةٍ، وكيف قامت الحكومة بمحاصرته، ومعالجة الملايين مجانا و...

سألتُ نفسي وسألتُه:

تعالجون الملايين، وتنسون مياه النيل الملوثة؟

أنت فلاحٌ يا محمود وتعلم أن الزراعة المرشوشة بالمبيدات السامة، والخضروات المسمدة بالأسمدة المؤذية، والفاكهة «المهرمنة»، تصيب ملايين أخرى جديدةً.

المرض المتوثب الجائع يلتهم أجسادًا غضةً بريئةً بفضل هذه المنتجات الضارة. لم يعد الأمر قاصرًا على الكبار والكهول

يا محمود... بل يحرق بنار انتقامه أطفالًا صغارًا، وشبانًا في مقتبل العمر.

بزتك الفخمة الأنيقة يا محمود بلون السماء الصافية، وخطوطها الرأسية تلوح من بعيدٍ كأنها سحبٌ رقيقةٌ تداعب وجوه البشر، والأشجار والزروع والجبال، وسطوح المنازل البعيدة، ولكنك حين كنت خطيبي، لم أشعر نحوك بمثل ما أشعر به الآن. لكم تمنيت أن تعود إليَّ وتعيد زمان الوصل، لنبدأ من جديد، وما فات مات، ولكن كل شيءٍ نصيبٌ!

لدي الآن طفل جميل أنجبته ممن تزوجته، وخضت معه مشكلات لم تكن ضرورية. تجاوزناها من أجل الغلام الجميل. كان زواجي قدرًا مقدورًا. وكأنه ردُّ فعلٍ على خيبتي في خطبتين متتاليتين لم تكلَّلا بالنجاح لأسبابٍ؛ ربما تعرف بعضها، ومع كل ما جرى أتمنى لك كل خيرٍ وتوفيقٍ.

تبرعتَ لأبيك بجزءٍ من الكبد، فتدهورتْ صحتك، وهزل جسمك، ورأيتك بنيانا يتهاوى. ترى هل كنت أتمسك بك؟ وأبقي عليك؟ ومن حولي يشبِّهونني بالوردة المتفتحة، التي

ستكون أستاذةً جامعيةً، وينادونها منذ السنة الأولى في الجامعة، بالدكتورة؟

كيف أرتبط بشعاعٍ غاربٍ، والدنيا تبسم في وجهي وتفتح ذراعيها بآمال مفتوحة إلى عالمٍ فسيحٍ بلا حدود.

قلت لي:

- غدا سأتحسن. ويعود إليَّ روائي. فاصبري قليلًا.

- كيف أصبر وأمامي شبحٌ يترنح؟

- سامحك الله. هكذا تكون نهاية الحب؟

- كان مشروع زواج.

- في الزواج يتعاون الناس في السراء والضراء.

- أبي غير موافق.

- يا له من تاجر لا يعرف غير الربح.

- حسبك. إنك تتحدث عن أبي.

- إني أصفه بما هو فيه.

- وأنا أيضا من رأي أبي.

قلت بأسى وحزن، كأنها نهاية العالم:

- سامحكما الله.

طويتُ صفحتك. وانصرفت إلى مذاكرتي، وعشت مع الأحلام التي تنتظرني في الفرقة الرابعة.

سأحصل على الليسانس، وأحقق الامتياز، ولا يبقى أمامي غير الصعود إلى السحاب. سيتم ترشيحي لأكون معيدةً. لا أحد يستحق الوظيفة غيري. ويكون أبي وأمي في قمة الانتصار والنشوة. فقد عاشا ليريا بكريَّتهما أستاذةً جامعيةً، يشار إليها بالبنان.

حينما خطبني محمود، كان يعزف على هذا الوتر. ستكونين أستاذة في قسم الفرنسي، وسأكون أستاذًا في قسم الإعلام. أسبقك بعدة سنوات. سنبني بيتًا تعيش فيه أجمل عينين، وأرق بسمةٍ، وأجمل امرأةٍ أطالعها كل صباح!

أقول له:

- لا تبالغ!

يضحك، بل يقهقه:

- ما أقوله لا يخرج عن الحقيقة.

أنتشي طربًا بما أسمعه. وأزقزق مع العصافير.

نجلس على المقاعد الخرسانية أو الخشبية، المبثوثة في حدائق الكلية نخطط للزفاف، ونرسم خطوط المستقبل، ونفرش السكن معًا، أبي سيختار لنا شقةً كبيرةً بجوار بيته، ونؤثِّثُها بالموبيليا الفاخرة، والثريات المذهبة والمفارش الراقية، والألوان الزاهية، والأدوات الكهربية المتميزة، ونخصص مكانًا للمكتب والمكتبة التي تليق بأستاذين شابين في الجامعة، ونزود الجدران باللوحات الفنية الغالية، ونضع الأطفال في غرفة خاصة تليق بهم. أريد ثلاثة أطفال، أجعل لهم ثلاثة سررٍ، وصوانًا كبيرًا به ثلاثة أرفف أو أقسام، يضم ملابسهم وأشياءهم، وسأحضر لهم أدوات اللعب الغالية...

كان والد محمود في المستشفى يرقد على سرير لا يستطيع الحركة، ولكن عينيه تتحركان، ولسانه يبين عن أفكاره.

- يا بنيَّ؛ لا تضحي بنفسك من أجلي.

- روحي فداك يا أبي.

- بنيَّ؛ أنت الشروق، وأنا الغروب الذي لا مفر منه.

- كيف يا أبي! لولاك ما كنا.

وفي سري، كنت أتمنى أن يستمع الابن لكلام أبيه، ولا يفتح بطنه ليمنحه فص كبده. لماذا يضع نفسه في مواجهة المجهول. أبوه سيموت حتمًا، أما هو فالمستقبل ينتظره، وأيام الربيع تغرد له، وعش الزوجية سيكون جنةً عرضها السموات والأرض، فلماذا يحرم نفسه منها؟ تبًا للمثاليات الفارغة في رءوس بعض العاطفيين من أمثال محمود الذين لا يحكِّمون العقل.

قلت له ذات مرة ونحن في زيارة لأبيه بالمستشفى:

- لماذا لا تبحث عن متبرعٍ يأخذ مقابلًا؟

- تعلمين أن ظروفنا صعبة، ثم إن المتبرع يصعب الحصول عليه.

- يمكن لأبي أن يساعد.

- ولماذا نحمِّل الناس مالا ينبغي أن يتحملوه!

يبدو أن مخه مغلقٌ على فكرٍ بائسٍ، فقد غافلني وذهب إلى المستشفى مستعدًا لإجراء عملية التبرع، ومنح أباه قبلة الحياة، وحين علمت رأيتهما ممدان بجوار بعضهما في غرفة واحدة بالمستشفى، الأب تدب فيه الحياة، والابن تطل من عينيه علامات الذبول! العجوز تتفتح أزهاره، والشاب تذبل أوراقه، ويريدني أن أكون في انتظاره لنحقق الحلم؟

كيف تفكر يا محمود. هل يمكن أن أتزوج ميتًا، أو من سيكون في حكم الميت؟ لقد سقط شعرك وضمر جسمك، وصرت عود كبريتٍ، لا أكثر، وغدًا أو بعده سنقرأ عليك الفاتحة.

لقد أخبرت أبي بكل شيء، وقلت له إنني لا أستطيع الاستمرار مع بقايا إنسان! وعلى الفور حملت الشبكة والهدايا وذهبت إليه في مكتب المعيدين بالقسم في أول يوم يعود فيه ليمارس فيه عمله وهو يكاد يسقط من طوله. قلت له بصوت محايد:

- اعذرني. لا أستطيع الاستمرار! كل شيء قسمةٌ ونصيبُ.

- كل شيء سيعود إلى ما كان. وسأسترد عافيتي بإذنه تعالى.

ثم أضاف بصوت واهن:

- لماذا العجلة؟

- إنه قرار عائلي.

- ورأيك أنت؟

- من رأي العائلة!

- لماذا يا شهيرة؟ هكذا من أول اختبار؟

- أتمنى لك حظا أفضل.

وأردفت:

- كن واقعيًا، وارض بنصيبك.

- كنت أظن أنك ستساعدين على مواجهة المتاعب؟

- لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

- سامحك الله.

- أستأذنك!

فغر فاه. لم يصدق ما يرى. أين ذهبت كلمات الحب

والأمل والوفاء؟ أنتَ حياتي، أنتَ أهلي وكياني. أنتَ روحي وقلبي، أنتَ... أنتَ... أنتَ... على الحلوة والمرة، في الغنى والفقر، في الصحة والمرض... ياه... كل هذا أصبح سرابًا، كنت أحلم بفجر صادق، وجدته فجرًا كاذبًا!

ابتلع ما قلته، وأقنع نفسه ألا يفكر فيه، وكأنه يقول: لا تستحق العتاب أو العقاب. من يبيع لا تفكر فيه، ولا يستحق أن تشتريه. الأصيل غير الزائف. وإلا فإن ما قالوه في الأمثال صحيح: «مرآة الحب عمياء».

تركتُه، وذهبتُ إلى المحاضرة، وجلست بين زميلاتي، لم تبدأ المحاضرة بعد، سألتني البنات عن خطيبي، لم يعلموا بما فعله مع أبيه، ولا ما فعلتُه به. كانوا يرونه شابًا وسيمًا، يعمل معيدًا بقسم الإعلام، وتتمناه كل واحدة منهن. حين رأوا على وجهي أماراتٍ جديدةً. لم يعرفن مغزاها:

- أخبار العريس يا عروسة؟

قالت واحدة منهن ضاحكة. لم أنطق. ظللت صامته.

- حين تسكت العروس فلا بد أن العريس غضبان.

قالت ثانية:

- لماذا أغضبته العروسة؟

تضاحكت البنات، والعروس صامتة لا تتكلم.

- الحب يحلو بالغضب. والغضب علامة على الحب؟

قالت أخرى، وغمزت بعينها:

- يا ليت لنا عريسا، وأنا أذهب إلى آخر العالم لأصالحه.

أخيرًا تكلمتُ، وبهدوء أوجزت:

- يا جماعة. كل شيء قسمة ونصيب!

- هل...؟

أومأت برأسي دلالة على فك الارتباط!

ظهر الأسف على وجوه البنات. وتناثرت كلمات تعبر عن مواساتهن لي، وتمنيات بعريس أفضل منه.

- المسألة بسيطة يا جماعة. كل منا ذهب لحال سبيله!

- حدثينا عن السبب.

- لم نتفق!

- لماذا؟

قالت إحداهن فيما يشبه الإلحاح، لمعرفة ما جرى.

رددت عليها بحسمٍ:

- أغلقن هذا الموضوع!

ولكن البنات لم يستجبن للإغلاق، فقد كنَّ يفتحْنَه في المناسبات التي تتاح بين المحاضرات، بطرقٍ مختلفة.



٢

كنتُ أواظب على حضور المحاضرات. لا أُفوِّتُ محاضرة، وأسأل الأساتذة حول موضوعات المادة. عرفوني من بين الحشود التي تضم طلاب الفرقة، وحين نجحت في جميع المواد بامتياز في الفصل الأول من السنة الأولى، لفتُّ انتباه أعضاء هيئة التدريس في القسم، وكررت النجاح بامتياز في جميع المواد في نهاية الفصل الثاني، قال لي أحد الأساتذة:

- أنت مشروع أستاذ يا شهيرة.
- شكرا يا أستاذي.
- أنت ممتازة فعلا يا ابنتي.
- نسير على خطاكم أستاذي.
- آمل أن تحافظي على هذا المستوى حتى التخرج.
- إن شاء الله.

كانت كلمات الأستاذ جائزة معنوية عظيمة رفعتني إلى

عنان السماء. أحسست بنشوة التفوق وإثبات الوجود. من جدَّ وجد. البقاء للأقوى في وسط هذه الغابة من الطلاب، ولا بدَّ أن أكون قويةً بالنجاح المذهل. بدأ زملائي وزميلاتي يتقربون إليَّ، ويطلبون منِّي كراسة المحاضرات لينقلوا منها ما فاتهم، وبعضهم يسألني كيف أذاكر، وكيف أحرز الامتياز في كل المواد؟

جاء الامتيازُ إضافةً جديدةً إلى مؤهلاتي. كنت أملك الجمال، وتحسدني الفتيات على قوامي الغض، وعيوني العسلية، وشعري الفاحم، ووجهي المدور مثل القمر، والآن يحسدونني على الامتياز، وأمي تقول لي: «تستحقين يا دكتورة أميرًا على فرس أشهب، له قصر في السحاب، مليء بالحشم والخدم، والأثاث الفاخر والرياش الفخم، شهيرة بنت عصام وأنيسة، تستحق أن تكون ملكة أو أميرة».

كان أبي يتيه بي أمام أصحابه التجار، ويقول لهم عندي أستاذةٌ جامعيةٌ، وإخوتها الصغار سيكونون مثلها أيضًا. كان يجد في هذا تعويضًا عما لم يحصل عليه من قبل. حصلت على مجموعٍ عالٍ في الإعدادية والثانوية، وهأنذا أحرز الامتياز في

الجامعة. كان حظه محدودًا في التعليم، ونصيبه دبلوم صناعة انتزعه بصعوبة. بعد تخرجه لم يجد عملًا مع أن البلاد أيامها كانت تفتح ذراعيها للصنايعيَّة والحرفيِّين، وكانت دخولهم أضعاف دخول الموظفين، ولكنه لم يلتحق بأصحاب المهن والحرف، واختصر الطريق، فركب الحافلة المتوجهة إلى سيناء ونويبع، ثم الأردن، فعبر الحدود، إلى بغداد يا بلد الرشيد يا قلعة الأسود، وهناك رأى مصر كلها كأنها انتقلت إلى شارع السعدون، وشارع المنصور:

- مصر كلها يا أبي هناك؟

- شباب من كل القرى والمدن المصرية يفرشون بغداد والبصرة والموصل، وكل شبرٍ في العراق.

- وأين أهل البلاد؟

- في الجبهة. يحاربون إيران.

- وعمل المصريين يساعد المحاربين.

- بالتأكيد. في المصانع والمزارع والمحلات وغير ذلك.

- وأنت ماذا كنت تعمل؟

- عملت في أشياء كثيرة. في مخبزٍ، ومقهى، ومحل ترزي، ومحل أحذية، وصالون حلاقة، ومحل أدوات كهربية، وأدوات سباكة، و...

- كيف كنت تتنقل في كل هذه الأعمال؟

- كان زملائي الذين أعرفهم يغرونني بأجر أكثر فأنتقل معهم.

ألح عليَّ سؤال غريب نتيجة لما سمعته من زملائي ذات يوم:

- ألم يكن هناك كفيل يتحكم في حركة العمال الأجانب؟

ضحك أبي، وقال لي:

- من الذي حدثك عن الكفيل؟ نحن أيضًا كنا نسمع عن نظام الكفيل في الدول المجاورة، ولكن العراق كانت مفتوحةً بلا قيود.

كان أبي يحدثني كثيرًا عن أيام العراق، ويقول لي إنه سمع المصريين القادمين من الأرياف يشبهون الأيام الطيبة الرخاء، بالعراق، ويقولون: «كانت أيام عراق»، فقد كانت العراق أيام

الخلافة العباسية من أغنى بلاد العالم، بل كانت زعيمة العالم مثل أميركا في أيامنا، فضرب بها المثل في الرخاء والعزِّ.

عاد أبي من العراق بعد تحرير الكويت التي احتلها صدام. قال لي فيما بعد: «إن الأميركان حرضوه على غزوها، بعد ذلك جاءوا بجيوش العالم ليطردوه منها ويدمروا جيشه، ويكسروا ظهره اقتصاديًا، ويُذلوه سياسيًا. ولم يتنبه إلى الفخ الذي اصطادوه به».

اشترى أبي بمدخراته قطعة أرض زراعية صغيرة في عشوائيات شبرا الخيمة، وبناها بيتًا صغيرًا من ثلاث طبقاتٍ، وجعل الطبقة الأرضية محلين صغيرين بجوار البوابة التي تشبه بوابات العمارات الكبيرة، الثانية والثالثة في كل منهما شقةٌ واحدةٌ، بها ثلاث غرفٍ متوسطة، واحدةٌ تطل على الشارع الضيِّق، والأخريان على منور، ولكنها أفضل من السكن بالإيجار.

خصص أبي المحل الأول لتجارة الحبوب والأعلاف، والآخر للخضروات والفاكهة. وكان يعمل في المحلين فترة

الصباح، وعندما يكثر الزبائن ينادي على أمي لتقف في أحدهما، وفي المساء كنت أساعده. كانت الحركة فيهما جيدةً بصفةٍ عامة. ويدخر من الربح مبالغ لا بأس بها، يستخدمها أحيانًا في شراء سيارةٍ مستعملةٍ يبيعها إذا حققت له ربحًا مناسبًا، ثم يشتري غيرها ويبيعها وهكذا. من ناحية يتبختر أمام معارفه بالسيارة، ويُظهر لهم أنه من الطبقة الغنية، ومن ناحية أخرى يحقق ربحًا قد يكون كبيرًا.

مشكلة أبي إحساسه أنه أقل من الآخرين، ويحرص دائمًا أن يبدو في صورة أكبر من حجمه، ليس مهما أن تكون هذه الصورة معبرةً عن حقيقةٍ واقعةٍ على الأرض، أو قائمةً على التزييف وعدم الاقتناع. إنه يريد إثبات الوجود بأية وسيلة. ولذا كان سعيدًا بطريقة لم أعهدها فيه حين تصوَّر أن معيدًا في قسم الإعلام سيتقدم إلى ويخطبني منه!

كان محمود قد تعرف إليَّ في مكتبة الكلية، كنت أبحث عن بعض الكتب، ولاحظ أني أسأل أمينة المكتبة عن كتاب معين، فقام بنفسه وأحضره إليَّ:

- تفضلي يا آنسة.

- أشكرك.

قلتها متصنعة الحياء، منتظرة أن يتحدث أكثر فأتعرَّف إليه. لم يخُيِّب ظني:

- في أي قسم؟

- فرنساوي.

- قسم الرقة والجمال!

أحسست أنه يشاهد وجهي المضرج بحمرة الخجل. تابع قائلًا:

- قسم الفرنساوي قسم المتفوقين.

ابتسمت، وانعقد لساني، فلم أجد كلامًا أرد به. ولكنه حاول إخراجي من ورطتي:

- أنت مكسوفة؟ ولا يهمك.

ثم قال:

- أنا محمود. معيد في قسم الإعلام، وأعد رسالة

الماجستير، وأسكن في إحدى قرى الجيزة. أسرتي من الفلاحين، ولدينا قطعةُ أرضٍ كما نستأجر بعض الأفدنة.

أحسست أنه يتكلم بصدق، وأنه أقرب إلى السذاجة، وهو ما شجعني على الخروج من الورطة، فتح الله عليَّ ببعض الكلمات:

- نحن قريبون من الكلية. نسكن في شبرا الخيمة.

- صرنا جيرانًا! المسافة قصيرة بين الجيزة وشبرا.

وضحك. ثم أردف:

- لمَ لمْ تقولي ذلك من قبل؟ إنها مفاجأة. فرصة طيبة.

ونهض واقفًا:

- أنا في القسم إذا أردت أية مساعدة.

- شكرًا.

كنت في نشوة، وإحساس غريب لم يسبق أن شعرت به، لا أعرف ما هو؟ هل تعلقت به أو إنها أمنية تصنعها الأحلام؟ محمود شابٌّ وسيمٌ، يبدو طيبًا، ثيابه حسنة التنسيق، طويلٌ، يبدو

عوده قويًا، جبهته مضيئة، وأنفه دقيق، وعيناه ثاقبتان، ذكيتان. حكيت لأمي ما حدث، فرفعت يديها إلى السماء، وقالت: «اللهم اجعله من نصيبك يا شهيرة، يا بنت بطني!».

عندما علم أبي بهذا اللقاء، ابتهج ورقص قلبُه. وآمن أن زوج ابنته سيكون أستاذًا في الجامعة، وهي أيضًا ستكون أستاذة جامعية. هكذا عبَّر عن أمنيته لأمي. أبي يسبق الأحداث ويحول أمنياته في الخيال إلى واقع يسبق الواقع على الأرض. ولكني قلت له: لا تستعجل، فالمسألة لا تعدو أن تكون لقاءً عابرًا!

إصراره على الخروج من منطقة الإحساس بالدونية تؤرقه، وشعوره أنه أقل من الآخرين يقض مضجعه، مع أنه يعيش في مستوًى طيب. غيره يتعب ويشقى، ولا يجد ما يكفيه بقية الشهر. يحب المال حبًا جمًا، ويعتقد أنه الطريق لفتح الأبواب المغلقة، والعلاج لعقدته المستعصية. وفي سبيل ذلك لا يراعي أية مواضعات. اختلف مع أبيه على بعض الصفقات التي كان يشارك فيها. جدي عبد الراضي حسن جاء من الصعيد، وعمل بمهن مختلفة، حتى استقر بالتجارة التي بدأت متواضعة، ثم أخذت تنمو، فراح يتاجر

في أدوات المعمار والحدائد، ويدخل في صفقات مع تجار السبتية وبولاق. أصر أبي ذات يوم على المشاركة في إحدى الصفقات، وعند توزيع الأرباح أصر أن يأخذ مثل الآخرين مع أن إسهامه كان أقل منهم. قالوا له: «إن التوزيع حسب النصاب المالي». رفض وغضب، وهدد بأن يشكوهم جميعًا إلى القضاء.

قال له جدي:

- تعلم جيدًا أن هناك نظامًا للمشاركة دخلت على أساسه.

- أنا شريك مثل الآخرين.

- لست مثلهم.

- ألم أقدم مالي؟

- بلى، ولكنه أقل مما دفعوه، وهو ما يجعل نصيبك من الربح أقل.

- إنك أبي، ويجب أن تقف في صفِّي.

- أقف في صف الحق. والحق أحق أن يتبع.

- سأبحث عن غيرهم.

- لك ما تريد، فقد قرروا أن تكون وشأنك. بعيدًا عنهم.

- سأثبت لهم أني أقوى منهم.

- ليكن بالحق.

جدي يعيش في شقة تمليك بالسبتية تربي فيها أبي مع أعمامي وعماتي، وكان يتاجر في بعض البضائع المتواضعة، وشارك آخرين في صفقات محدودة كبرت قليلًا فيما بعد، وكانت تدر دخلًا معقولًا، استطاع به الإنفاق على أبنائه، وتوفير حياة مستورة لأسرته. ولكن أبي أراد بعد عودته من العراق أن يكون مستقلًا وصاحب اسمٍ رنانٍ فغادر المنطقة، ولم يُلق بالًا لأبيه ولا لحقه عليه، ومنذ صفقة بولاق قاطع عائلته، ولم يزرهم وخاصم جدي، ولا يكلمه إذا التقيا قدرًا في مكان ما.

أحبُّ جدي الذي كان يحنو عليَّ في طفولتي ويدللني، ويسأل عني، ويحمل إلي الحلوى والهدايا، والملابس، كنت أول حفيدة له، فكاد يطير بي فرحا، ولكن أبي حرمني جدي ومتعة لقائه والحديث معه. يريد أن يكون صوتًا مسموعًا في المكان الذي يحل به!



٣

- يا بختك يا شهيرة!

- ماذا يا بنات؟

- تنجحين بامتياز. هذا العام أيضًا.

- إني أذاكر وأتعب. افعلن مثلي.

- ليس لنا معيد في الكلية.

أظهرت غضبي منهم، وقلت لهم:

- الكلية مليئة بالأساتذة وليس المعيدين فقط. كل واحدة تبحث عن أستاذ لتنجح بامتياز.

كان الشتاء قد أقبل بأمطاره وعواصفه. أشجار الكلية بدت في أكثرها جرداء من الأوراق والظلال. أشجار أخرى أنطفأ لون أوراقها وصار كابيًا. الشمس تسطع وتختفي سريعًا بين غيومٍ كثيفةٍ متفاوتة الألوان من الأبيض إلى الرمادي إلى الأسود. ولكن البرد جعل الناس ينفخون في أياديهم مع أنهم يرتدون ملابسهم

الثقيلة، بعضهم يرتدي معاطف طويلةً، وأغطية رأسٍ سابغةً إلى ما تحت الأذنين، وهناك من يحمل مظلاتٍ في يده اتقاءً لمطرٍ مفاجئ، وكنت في هذا الجو الملبد أفكر في محمود، وفي الذهاب إليه في مكتبه، وأتمنى أن يوفر عليَّ اللقاء في مكتبه فأجده في مكتبة الكلية. المكان هناك واسع، وهناك طلابٌ وطالباتٌ وأساتذةٌ وموظفون. اللقاء في المكتبة ضمن هذا الجمع لا يثير انتباه أحدٍ، ويتيح فرصة للكلام.

قلتُ أسمعُ أولًا محاضرة الدراما ثم أفكر في أمر محمود. الدكتور مختار أستاذ الدراما مشهور. له علاقات قوية بحزب الحكومة، وتستضيفه الإذاعات والشاشات، وله وجودٌ رسميٌ في الهيئات الثقافية، وله آراءٌ تدعو إلى الحداثة والتنوير والاقتداء بفرنسا والغرب، وقد دعا من قبل إلى الاحتفال بالغزو الفرنسي لمصر بقيادة نابليون. وفي هذه المحاضرة، قال لنا:

- إن الفرنسيين متحضرون، وهم أساس حضارتنا الحديثة!

سأله طالب:

- كيف يؤسِّسون حضارتنا، وقد ذبح نابليون المصريين؟

- محمد على أرسل المبعوثين إلى فرنسا، فعادوا يحملون لنا الحضارة.

قال له طالب آخر:

- سمعنا أن نابليون قتل سُبع الشعب المصري في حملته على مصر والشام.

- لقد عرفنا بالمطبعة أساس التعليم.

جاء صوت طالبة من آخر المدرَّج:

- يا دكتور لقد أخذ المطبعة معه. لقد كانت مطبوعاتها بالفرنسية من أجل جيش الغزو والذبح!

- دعونا من هذا الكلام، واستعدوا في الأسبوع القادم لزيارة السفير الفرنسي وطاقم السفارة إلى القسم. سيمنحون المتميزين رحلة إلى باريس والمدن الفرنسية الكبرى لقضاء الإجازة الصيفية هناك. أما الأقل تميزا فيمكنهم المشاركة في معسكرات شاطئية ستقيمها السفارة في الساحل الشمالي بين الإسكندرية ومطروح، وستكون فرصة لتقوية اللغة بالإضافة إلى النشاط الترويحي، وتوفير الإقامة والتغذية مجانًا.

هلَّل الطلاب لهذا الخبر، ونسوا مذابح نابليون، والاحتفال بحملته التي سماها الدكتور مختار ورفاقه بالعلاقات الثقافية بين مصر وفرنسا. خرج من المدرَّج وهو يشعل غليونه، ومن حوله بعض الطلاب، يتحدثون إليه ويتحدث إليهم.

يا إلهي! الرجل بلغ أرذل العمر واشتعل رأسه شيبًا، ولكنه يصبغه ليبدو أكثر شبابًا، ولكن هيهات! يحب الحديث إلى الطالبات والنساء عمومًا، ويصغي إليهن باهتمام، ومكتبه يظل مفتوحًا إلى المساء ويحظى بزيارة طالباتٍ وهيئة تدريس من النساء. كلامه ناعم ولطيف. وحين يستمعن إليه فكأنهن يستمعن إلى عزف الموسيقى. لا أحب الذهاب إليه، فقد حاول ذات مرة أن يتحرش بي في مكتبه، ولما أبديت فزعي، قال لي:

- يبدو أنك فلاحة.

سكت ولم أجب. فقال:

- الحياة جميلة. عليك أن تستمعي بها.

تجرأت وقلت:

- في الحلال يا دكتور!

بنبرة ساخرة:

- ما زال عندنا من يتكلم عن الحلال والحرام!

وواصل:

- الحلال والحرام موضة قديمة.

قلت له:

- أترضى أن تعيش ابنتك خارج الحلال والحرام؟

- يبدو أنك صعبةٌ يا شهيرة، وساذجة أيضًا!

اندهشت لأنه يحفظ اسمي بين الحشود التي يلتقي بها في المحاضرات وخارجها، استأذنته، وانطلقتُ لا ألوي على شيء. عرفت عنه أشياء كثيرة يتهامس بها الطلاب والطالبات، ولكن كان هناك من يشغلني، ومن يشجعني على الارتباط بمحمود. كان أبي ينظر إلى مركزه الاجتماعي ويأمل أن يتحقق حلمه من خلالي. ابنته دكتورة وزوجها دكتور! وسيختار لهما سكنًا واسعًا بالقرب منه. سيساعده في أول الأمر وينتظر منه بعد أن يكبر في الوظيفة أن يرد الجميل. منهج خذ وهات هو الدستور الذي لا يجوز

تغييره في عرف أبي. لقد فكر في أن خطيبي أو زوجي باعتبار ما سيكون؛ يمكن أن يسافر في بعثة إلى فرنسا، ويقضي هناك سنوات يعود بعدها بسيارة وآلاف الفرنكات وشهادة الدكتوراه، ومشتريات لامثيل لها في بلادنا. سأكون برفقته بالتأكيد، وأحصل على الدكتوراه أيضًا، وبعدئذ ننتقل إلى الأحياء الجديدة الفاخرة في مدينة نصر التي لا يعيش أهلها في العشوائيات، وليسوا زبائن الأعلاف والبقوليات، سيتعلم أولادي في مدارس خاصة، ويكون الهمس هو أسلوب الحياة في عالم الكبراء والأغنياء. يا له من حلم! ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. ما أجمل أحلام اليقظة، هنيئًا لك يا أبي بأحلامك، التي ما خطرت ببالي.

شجعتني أحلامه على الذهاب إلى المكتبة. في أعماقي كنت ذاهبةً لرؤية الهدف، وإن لم أجده سأذهب إليه في مكتبه تحت أية ذريعة. المهم أن نلتقي. كأنه كان ينتظرني من وقتٍ طويلٍ، ويجلس على أحرَّ من الجمر، يكشف عن ذلك شدة لهفته على لقائي. كان ينتظر، ولعل انتظاره من قبل محاضرة الدكتور

مختار العاصفة. تهلل وجهه حين رآني، وهب واقفًا، وأشار إلى كرسي خال في مواجهته، وقال:

- تفضلي

شكرته على حسن استقباله. سألني:

- ماذا تريدين من كتب؟

قلت له في تمنع:

- لا عليك. إني أعرف مكان ما أريد.

- سأحضرها بنفسي. قولي أولًا: ماذا تشربين؟

- أشكرك. لقد شربت في البيت قبل أن أحضر إلى الكلية.

- الجو بارد. والتدفئة مطلوبة.

ضحكتُ، وأبديتُ الممانعة مرة أخرى، وقلت بمزاحٍ:

- لي عندك مشروبٌ ساخن!

سميته حديث الاستحواذ الذي يصنعه التمنُّع والحياء والأسئلة غير المباشرة، والأحلام المجنحة التي لا تكشف عن

نفسها. تحدثنا عن المحاضرات والامتحانات وأيام الصيف، ودلف بنا الحديث إلى باريس والرحلة المتوقعة التي سيعلن عنها السفير الفرنسي في القاهرة حين يزور الكلية في إطار اهتمام الفرنسيِّين بلغتهم وثقافتهم ونشرها بين شعوب العالم الثالث. تمنى أن يزور باريس. قلت له:

- تزورها مبعوثًا للدكتوراه.

- لعل الله يستجيب لدعائك.

- آمين!

استدرك. ستكون بعثة رائعة حين تبعثين أنت أيضًا؟

سرَّتني ملاحظته، وقلت في تصنُّع:

- ما زال الوقت مبكرًا!

- عندما تتخرجين، وتصبحين معيدة ستكون البعثة أقرب من حبل الوريد. كلها فركة كعب.

شعرت أنه في طريقه لإعلان مشاعره. وعند ذلك نهضت لألحق بالمحاضرة التالية. سألني:

- متى أراك؟

لم أجد إجابةً. لزمت الصمت.

- هل ستأتين غدًا؟

- إن شاء الله.

- سأنتظرك هنا، وأجهز لك الكتب، والشاي الساخن.

ابتسمت وانصرفت، وفي البيت حكيت لأمي. فابتهجت، ورفعت يديها بالدعاء ليكون من قسمتي ونصيبي. وانعكست فرحة أمي على ملامح أبي حين نزلت إلى المحل لأساعده. كانت أمي قد نقلت إليه ما قلته لها. وبدا أنه ينتظر الضوء الأخضر ليتقدم محمود إليه، ويطلب يدي.

قال لي أبي وهو يفتعل القلق من أجلي:

- تأخرت اليوم يا دكتورة؟

دهشت لسؤاله. لم يتعود أن يسألني عن التأخير. نادرًا ما يهتم بحركتي وشئوني. ترك الأمر لأمي التي تقوم بمتابعتي، وترتيب احتياجاتي، ومصروفي، وثمن الكتب ومستلزماتي الأخرى. أجبته:

- لم أتأخر. جئت بعد المحاضرة مباشرة.

تشاغل عنِّي بزبون قادم يحتاج بعض الخضروات والفاكهة. وجاءه بعض التجار الذين يعرفهم فأخرج لهم دكة من داخل المحل ليجلسوا عليها، وسحب كرسيًّا، وجلس أمامهم وراحوا يتناقشون في أمور شتى، فانسحبت إلى الداخل، وأخذت في استرجاع ما حدث طول اليوم داخل الكلية، ورحت أحلم!





هو الصورة المعاكسة تمامًا للدكتور مختار. إنه الدكتور عمارة. رجلٌ مختلف. متمكنٌ في مادته وثقافته، عاش في فرنسا وإنجلترا أربع سنواتٍ جاء بعدها بالدكتوراه، وهو مشهور بالثقافة الموسوعية، ويحب القراءة والاطلاع، ويناقش طلابه في هدوءٍ ومودةٍ، ويقبل أن يختلف معه الطلاب فكريًا، ويصبر في إقناعهم بالدليل والبرهان، وهو فخور أنَّه يجمع بين الثقافة العربية الإسلامية، والثقافة الفرنسية الغربية، ومؤلفاته في الثقافتين كثيرة، ويقول دائمًا:

«يجب أن تفهم نفسك أولًا قبل أن تفهم الآخرين». ويفسر ذلك: «حين تتلقى ثقافةً أجنبيةً، دون أن تعرف ثقافتك وما فيها، فإنك ستقبل كل ما تعطيه لك الثقافة الأجنبية، ولو كان ضد مصلحتك ومستقبلك، وقد يكون لديك البديل الذي لا تراه. وهذه مشكلة كثير من النخب العربية والإسلامية».

لحسن الحظ كانت المحاضرة الأولى هذا الصباح المشمس الدافئ للدكتور عمارة. إنه يدرس لنا مادة الشعر الفرنسي، ونحن

نتذوقه، ونجد في شرحه معينًا لا ينضب من الوعي بكبار الشعراء الفرنسيين، ونتعرف على صورهم وأخيلتهم وبناء قصائدهم، ونتنافس في ترجمتها، وكثيرًا ما منح بعضنا جوائز عينية يخصصها من ماله لأفضل ترجمةٍ يقوم بها الطلاب.

سأله أحدُنا اليوم عن الاحتفال بالحملة الفرنسية أو العلاقات الثقافية بين فرنسا ومصر كما سماها الدكتور مختار. ابتسم في هدوء، وقال مازحًا:

- تريدون أن تفتنوا بيني وبين الدكتور مختار؟

قال طالب بحمية الشباب:

- نريد أن نعلم الحقيقة!

رد بسماحةٍ أبويةٍ:

- وأنا معكم من أجل معرفة الحقيقة.

وأضاف:

- علينا أولًا أن نتناول موضوع المحاضرة، وبعدها أتحدث معكم عن الاحتفال بالحملة الفرنسية.

أسلوبه بسيطٌ وسهل. يوضح الفكرة بسلاسةٍ، ويسأل إن كان هناك استفسارٌ أو سؤال حول ما يقول، ويظل يتابع عرضه مستعينًا بالكتابة والتخطيط على السبورة، ويطلب من الطلاب مشاركته في القراءة، وترجمة بعض الجمل والمصطلحات والتراكيب، حتى تنتهي المحاضرة ونكون قد استوعبناها جيدًا.

- بقيت دقائق على انتهاء المحاضرة. سأجيبكم على سؤالكم عن الاحتفال بالحملة الفرنسية.

قال ذلك ثم التفت إلى الطلاب الذين رفعوا أيديهم طلبًا للكلام، وأشار إليهم:

- انتظروا قليلًا. والمكتب مفتوح إن لم تسعفنا المحاضرة.

وراح يجيب عن السؤال الذي طرحه الطلاب بصورةٍ مبسطةٍ، معتمدًا على التسلسل التاريخي:

- جاء نابليون ليحتل مصر ويتحكم في مفرق الطرق الذي يوصل بريطانيا إلى الهند.

قاطعته طالبة في المقاعد الأمامية:

- لم يكن يقصد احتلال مصر؟

- لقد جاء ليقيم بمصر حاول خداع المصريين، حيث زعم أنه مسلمٌ مثلهم، وجاء ليقضي على المماليك الذين يظلمون المصريين.

- هل صدَّقه المصريون؟

هتفت طالبة أخرى.

- لم ينخدع المصريون، وراحوا يقاومونه، فقاتلهم بوحشيةٍ غير مسبوقة، وكان يملك اختراعًا جديدًا هو البارود فراح يطلقه عبر المدافع. كان المماليك والعثمانيون وأولاد البلد لا يملكون غير الأسلحة التقليدية: السيوف والرماح والسهام والعصي. ولكن اختراع نابليون حسم المسالة. وبعد مقاومةٍ عنيفةٍ في الإسكندرية ورشيد ودمنهور وبولاق وإمبابة والريدانية (العباسية) والأزبكية، انهارت المقاومة، وكان الحصاد داميًا أسفر عن ثلاثمائة ألف قتيل من المصريين.

التقط أنفاسه، وبدا حزينًا وهو يسرد تفاصيل الجريمة الفرنسية التي اقترفها السفاح نابليون وجنوده:

- كان سكان مصر يومئذ مليونين ومائة ألف. نقص عددهم

مقدار السبع، وهم من أبادهم الغازي المحتل. قام الجنود بنهب القصور والبيوت والمتاجر وأخذوا الحيوانات والحبوب والطيور، واغتصبوا النساء، واستولوا على حليهن، والأدهى من ذلك دخلوا الأزهر، وربطوا خيولهم فيه، وحولوا محرابه إلى مكان لقضاء الحاجة!

وتوجه بسؤاله إلى الطلاب:

- ما رأيكم في نابليون وفرنسا؟

صمت الطلاب وكأن على رءوسهم الطير. قال أحدهم وهو يشعر بدهشة مما يسمع:

- علمونا في التاريخ أن الحملة الفرنسية سبب نهضتنا الحديثة. ما تقوله الآن يقدم لنا شيئًا آخر!

قال طالب آخر بانفعالٍ غاضبٍ:

- هذا الكلام يؤكد أن الفرنسيين قتلة، ودخولهم الأزهر بخيولهم وقضاء حاجتهم في محرابه يثبت أنهم همجيون!

هتفت طالبة من آخر المدرج في غضبٍ واضحٍ:

- الفرنسيون استعماريون، ولو كانوا يملكون أحدث الأسلحة

وأعظم أدوات الحضارة! وقد قتلوا مئات الألوف من شعب الجزائر الشقيق، ومحوا لغته العربية، وحاربوا إسلامه وثقافته!

قال الدكتور عمارة، وهو يحاول أن يهدئ من انفعالات الطلاب التي عبر عنها من علقوا على كلامه:

- يا أبنائي يجب علينا الآن وفي كل وقتٍ أن نلوم قصورنا قبل أن نلوم أفعال المعتدي. العالم لا يعترف بالضعفاء والمتخاذلين. عليك أن تأخذ بالأسباب، وأن تملك كل عناصر القوة التي في حوزتك وتنميها بالعلم والبحث والمعرفة، وقبل ذلك بالشورى والحوار. وقد كنا زمن الحملة في حضيض الضعف والانهيار. أجل! كانت هناك بوادر لبناء القوة في مجال العلم والمعرفة في الأزهر الشريف، قادها أعلام الثقافة الإسلامية يومئذ، مثل الزبيدي، والبغدادي، والجبرتي الكبير، ولكن الحملة العسكرية لنابليون أجهضتها.

سأله طالب:

- كيف؟

- قام بعض العلماء الأزهريين بثورة ضد المماليك، وأوقفوهم

عـن الظلـم والجـور والنهـب، وراحـوا يبشـرون بنهضـةٍ علميـةٍ وحضـاريةٍ، ولكـن حملـة نـابليون الدمويـة أجهضـتها، ونكلـت بـبعض هـؤلاء العلمـاء، وحولـت وجهـة بعضـهم الآخـر قهـرًا مـن خلال ما سماه نابليون بالديوان.

قال آخر:

- لكن محمد على أسس لنهضة قوية؟

- وجـد الفرنسـيون في محمـد علـي؛ ذلـك الجنـدي الألبـاني المستبد الجاهل، كمـا وصفه الإمـام محمـد عبده، بضـاعةً جيـدةً ومناسـبةً بعـد أن اختـاره العلمـاء لحكـم مصـر. فحركـوه ليحقـق أغراضهم الاستعمارية، وهيأوا له أن يبعث الأزهريين إلى بـاريس من أجل العلم، فعـاد كثيرٌ منهم أبنـاءً مخلصين للثقافـة الفرنسـية المعادية للإسلام وثقافته. وصار لدينا تعليمان الأزهر المحاصر، والمدني الذي لا علاقة له بالإسلام!

كـان الـدكتور عمـارة قـد تجـاوز وقـت المحاضـرة، وجـاء المحاضـر الـذي يليـه، فوعـد الطـلاب باسـتكمال الموضـوع في المحاضـرة القادمـة، وسـمح لمـن يريـد مـنهم أن يـأتي إلـى مكتبـه لاستكمال الحوار.

تمنيت أن أكون مثل الدكتور عمارة في ثقافته وتأثيره على الطلاب واعتزازه بنفسه. دخلت مكتبه ذات يومٍ، وكان هناك بعض الطلاب، فرأيته يصلي على سجادةٍ افترشها في أحد الأركان، وبعد أن انتهى من الصلاة، سمعته يردد بتنغيم وتجويد:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

حين انتهى، قلت له:

- تقبل الله يا دكتور.
- منَّا ومنكم.
- لم أتعود على الصلاة للأسف!
- لماذا وأنت طالبةٌ نابهة؟
- بصراحة؛ لم أجد أحدًا في بيتنا يصلي!

- الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين. هكذا يعلمنا الرسول ﷺ.

ردد الطلاب ورددت معهم:

- ﷺ.

كثير من زميلاتي بنات الطبقة الغنية. لا يعرفون شيئًا عن الدين. كتاب التربية الدينية في الإعدادي والثانوي لم يكن أبدًا له حضورٌ في دراستنا أو اهتمامنا. نتذكره ليلة الامتحان ننظر فيه نظرةً عابرةً ثم ننجح جميعًا في المادة. المعلمون الذين يدرسون لنا في الإعدادي والثانوي، ينتظرون حصة الدين لتدريس مواد أخرى يستدركون ما فاتهم. مادة التربية الدينية لا تضاف إلى المجموع، وهي المادة الوحيدة التي لا يذهب فيها الطلاب إلى الدروس الخصوصية! المدارس الجديدة ليس فيها مساجد. معظم الطلاب لا يعرفون شيئًا عن الدين، أما الذي يعرف فالفضل يرجع لوالديه أو أسرته، وهناك معلومات خاطئة يفهمها بعضهم نقلًا عن بعض أشباه المتدينين. سمعت من يفسر زيادة الحوادث البشعة في البلاد بين الأقارب والجيران وأهالي المنطقة الواحدة من قتلٍ وخيانةٍ

زوجيةٍ وسرقاتٍ ونصبٍ واحتيالٍ ورشوةٍ واختلاساتٍ وغيرها؛ بعدم وجود الدين في قلوب الناس وسلوكهم، وسيطرة التدين الشكلي.

كل هذا لا يعنيني أنا شهيرة التي تريد أن تحقق الأولوية في الليسانس، وتصل إلى وظيفة معيدة بالقسم وتتأهل لتكون دكتورة، ولكني مكسوفة من الدكتور عمارة.

حاولت أن أدافع عن نفسي وعدم صلاتي دفاعًا قويًا. لم أستطع أن أقول كل ما أعرفه عن عدم تعليم الدين في مدارسنا، وانهيار المجتمع، وقسوة معظم الناس.

اندمجت مع زملائي في أسئلتهم حول مادة الشعر، التي راح الدكتور عمارة يجيب عليها بصبرٍ وأُبوةٍ.





صار محمود يقابلني في مكتبة الكلية، ونفتح الكتب أمامنا ولا ننظر فيها، لأننا مشغولان بحديث العواطف المتدفقة. عرفت عنه كل شيء، وعرف عني كل شيء. كانت علاقتنا في إطار جلستنا بمكتبة الكلية غالبًا، إن تجاوزتها فإلى مقاعد الحديقة الحجرية أو الخشبية، حذرتني أمي من أي تجاوز في العلاقة أو الانفراد بعيدًا عن الناس. حتى الآن لم ينطق الكلمة التي أنتظرها، ويتشوق إليها أبي. من ناحيتي كان قلبي يرقص فرحًا كلما التقينا، ولكني لا أستطيع أن أطلبها منه. كنت أشجعه عليها، وكانت أمي تتابع وتسألني:

- هه ! ألم يقل لك شيئًا؟
- الصبر يا أمي. المسألة لا تأتي هكذا سريعًا!
- أخشى أن يكون من الذين يتسلُّون بالبنات.
- كلا يا أمي. إنه طيبٌ، بل يبدو ساذجًا في بعض الأحيان.
- أشعر أن المسألة طالت.

- لم يمرَّ على معرفتي به إلا بعض الشهور القليلة.

- كانت كافية ليتخذ خطوةً عملية.

- لعله يتدبر أمره. ويرتِّب نفسه.

- الأمر لله.

بـرودة الشـتاء تكـاد تفتـك بـالأطراف وتشـلها عـن الحركـة، وامتحانات الفصل الدراسي الأول تشغل الطلاب في كـل الأقسـام، ومحمود ينتظرني في المكتبـة. أقابلـه بعـد تسـليم ورقـة الإجابـة في لجنة الامتحان. لحسن الحظ أن أيام الامتحان في قسـمه غيـر أيـام الامتحــان في قســمنا. هــو يشــارك في الكنــترول، والمــرور علــى اللجان مع الأساتذة، ويفرغ لـي أيـام امتحـاني. ينتظـرني في المكـان الذي تعودنا الجلوس فيه يطالع أو يـدوِّن بعـض الاقتباسـات التـي يحتاجهـا في رسـالته للماجسـتير. حـين يـراني يبتهج، ويـترك مـا في يده، ويطلب المشـروبات السـاخنة، ونثرثـر حتـى وقـت الـذهاب، فينهض لمرافقتي حتى باب الكلية.

أنبـأني أن ملاحـظ الامتحانـات في إحـدى اللجـان الخاصـة بقســمهم؛ ضــبط بــالأمس طالبًــا ومعــه أوراق للغــش. الأوراق

صغيرةٌ، والكتابة فيها صغيرةٌ جدًا، والطالب يضعها في مكان خفيٍّ بين ملابسه.

حدثت مشادةٌ بين الطالب والملاحظ، وحضر المشرف على اللجان، فتوعَّدهما الطالب، وقال لهما:

- ألا تعرفان من أنا؟

ووصل بعض الأساتذة من القسم. تم إخراج الطالب، وصحبه رجل أمن مع المشرف إلى العميد فوجههم إلى الشئون القانونية، لإجراء المحضر اللازم، وإبداء الرأي لاتخاذ ما يلزم وفقًا للغة القانونية.

كنت أشعر بأن قلبي سقط من صدري. أحسست بانقباضٍ وهو يسرد أحداث الغش الذي اقترفه الطالب. وقلت في سرِّي: الحمد لله!

قال محمود:

- الطلاب يغشُّون بصورة لافتة هذه الأيام. لهم حيل وألاعيب كثيرة في الغش. طرق شيطانية يستخدمونها تؤكد أن إبليس تلميذ لهم ويتعلم منهم! الطالب الذي لا يغش استثناء.

كان رأسي يدور وأنا أستمع إليه، وأشعر بقلبي يختلج وهو يحكي عن حيل الغشَّاشين وأساليبهم المتنوعة:

- طالب يستخدم الموبايل عن طريق خاصية السماعة التي يضعها في كمه، ويحنى رأسه، وهو يتحدث إلى أحد خارج الكلية يملي عليه الإجابة من صفحات الكتاب، وحين يقترب منه الملاحظ يتصنع العدَّ على أصابعه وكأنَّه يعدُّ عناصر حلِّ السؤال، فيكتفي بتنبيهه إلى الصمت، حرصًا على راحة زملائه.

- عجيب أمر هؤلاء الطلاب!

أبديت تعجبي واستغرابي، فأنا أحصل على امتياز دائمًا.

- ليس عجيبًا! إن قوة شوكة الغشاشين تدفعهم إلى الاعتداء على الملاحظين، وإصابة بعضهم أحيانًا! وهو ما جعل معظمهم وهم من الموظفين بالكلية وخارجها يغضون الطرف عن الغش والغشاشين، خوفًا على أنفسهم. فقد تناقلوا أن بعض الطلبة تربصوا بإحدى الملاحظات خارج الكلية عقب الانتهاء من اللجنة؛ وأوسعوها ضربًا، ومزقوا ملابسها ولاذوا بالفرار!

طرح تساؤلًا مزعجًا لكل من يعنيه الأمر:

- كيف يبني هؤلاء الغشَّاشون مجتمعًا عادلًا ومحترمًا؟

ليته سكت عند هذا الحد وعاد إليَّ يحدثني عن شأننا الخاص وعن المستقبل. أمي تسأل وتلح لمعرفة نواياه، وهو يأخذني إلى قضايا عامة لا تعنيني ولا تعني أبي الذي يريدني أن أكون دكتورة وزوجةً لدكتور في الجامعة بأسرع ما يمكن.

المفارقة أنه استمر في حديثه عن الغشِّ والغشَّاشين، وكلما سمعته يتكلم في الموضوع يرتجف بدني، وأشعر بقلقٍ عميق.

- الطالب الذي ضبط بالأمس في قسمنا لم يكن طالبًا عاديًا. ظهر أن أباه أستاذٌ في الكلية ويرأس قسمًا آخر، ويعدُّه ليكون معيدًا. فهمنا لماذا توعَّد الطالبُ الملاحظ الذي ضبطه والمشرف الذي قاده إلى التحقيق.

وتابع معلقا على ذلك بغضب لم أعهده فيه من قبل:

- والد الطالب الغشاش هاج وماج، وفي مكتب العميد ادعى أن ابنه بريءٌ من جسم الجريمة الذي ضبط بيده! هل يصلح هذا الكائن ليكون أستاذًا في الجامعة، ويخرِّج الأجيال التي تبني المجتمع على أسسٍ خُلُقيةٍ وسليمة؟

قلت له:

- هوِّن عليك يا حبيبي.

تداركت نفسي، وطأطأت رأسي وأنا ابتسم بخجلٍ من سبق لساني بكلمة «حبيبي». ما كان ينبغي أن أبوح بها بهذه الصورة، ولكني لاحظت طيف ارتياح بدا على وجهه كأنه ابتسامة مسروقة تعبر بين ملامح الغضب الذي سيطر عليه.

لزم الصمت وكأنَّ ما حدث من الطالب ابن لأستاذ رئيس القسم إهانةٌ شخصيةٌ له، فواصل كلامه:

- يفترض أن يكون الأستاذ قدوةً للآخرين، يعلم ابنه ألا يغشَّ، وأن يتواضع ولا يهدد بأبيه، ثم تساءل بألم:

- وهل يظن أنه سيفلت؟ لا بد أن يلقى عقابًا.

قلت له وأنا ألملم أشلاء نفسي:

- إن الغش صار متجذرًا الآن في جميع مراحل التعليم. في امتحان القبول يتطوع بعض المدرسين بإملاء الطلاب. الذي لا يعرف الكتابة هو الذي يرسب فقط. في الإعدادية ينتشر الغش

على أوسع نطاق، وفي الأرياف يستخدمون مكبرات الصوت خارج اللجان لإملاء الإجابات الصحيحة، وفي الثانوية العامة يغشون بالقوة. الذي لا يغش هو الطالب اللخمة أو الخوَّاف!

قال بأسى:

- إنها نكبةٌ أصابت المجتمع كله، وزرعت أسس الفساد.

متى يغير الموضوع لأستريح؟

حاولت أن أتكلم في موضوعات أخرى. ولكن موضوع الطالب كان مسيطرا على تفكيره ووجدانه. سمعته يقول:

- «من غشَّ فليس منا» صدق رسول الله ﷺ. الغربيون ينجحون، لأنهم لا يغشون، وإن كان هناك غش فهو محدود ويواجهونه بصرامة.

نهضتُ مودِّعةً، ولكنه حاول أن يستبقيني كأنه يريد أن يفرغ ما في صدره عن موضوع الغش، وصممت على المغادرة متعللة بأن هناك أمرًا في البيت يحتاجني، فسألني عن حال المادة التي امتحنت فيها اليوم، فقلت له:

- امتياز، إن شاء الله.

- عقبى لما تبقى من مواد.

خرج معي وأوصلني حتى باب الكلية، وقبل أن أغادر، فاجأني:

- أريد أن أتعرف على الوالد.

زغرد قلبي، وفرحت فرحًا شديدًا، وحاولت أن أتماسك:

- تشرفنا.

- ليتنا نلتقي عندكم عقب انتهاء الامتحانات.

- إن شاء الله. سأبلغه.

ومضيت على بساط الريح ومعي الأحلام الوردية، والمستقبل المطرز بالنجوم الزاهرة والكواكب الدرية. شهيرة أستاذة اللغة الفرنسية في كلية الآداب. سنة وبعدها سنة أخرى، أتخرج وأحمل شهادة الليسانس، وفيها الطالبة الأولى على الدفعة. الكلية تكلفني لأكون معيدةً، وأنتقل لإعداد الماجستير، وقد تأتي المنحة من السوربون في فرنسا، والسفارة تزكي، لأسافر وأدرس وأعود حاملةً الدكتوراه، وحبذا لو كان معي محمود. ومن المؤكد أنه سيكون معي. إنه تقدم لطلب منحة من بعض الجامعات الفرنسية، وأظن أنها

ستوافق على منحه المنحة. لغته الفرنسية جيدة، وهو محب للقراءة والاطلاع، إنه يشبه الدكتور عمارة في ثقافته إلى حدٍ كبير. سنكون معًا. قد يسبقني إلى هناك، ولكنِّي سألحق به، سأؤجل الزواج حتى أتخرج كي لا يشغلني الزواج عن الدراسة، وأحقق أملي. الطريق إلى بيتنا قصير، ها هي ملامحه تظهر لي سريعة كأنني لم أقطع مسافةً طويلةً بالحافلة، قلتُ لأمي:

- سيتحقق الحلم، باركي لي.

- خير يا ابنتي! خير.

- سيأتي. سيأتي.

- من؟

- محمود... محمود.

- ماذا قال لك؟

- طلب الزيارة للتعرف على أبي.

- متى؟

قلت بنشوةٍ غامرة:

- بعد انتهائي من امتحانات الفصل.

أطلقت زغرودة سمعها أبي في الدكان، فتركه وصعد إلينا، وسأل:

- زغرودة؟ ماذا هناك؟

- افرح. سيأتي العريس للتعرف إليك.

احمرت أذناه مثل عرف الديك. شعر أنه امتلك الدنيا وما فيها. أخبرني أنه سيقيم له وليمةً باذخةً لعله لم يجلس على مثلها من قبل، وقال لي:

- مبارك عليك يا حبيبة أبيها.

لا بد أن وجهي قد سرت فيه الدماء فقد أحسست بحرارة يصنعها العرق في عز البرد، وصار شكله ينافس لون أذني أبي بعد سماعه الخبر، وأغضيت حياءً، وانصرفت إلى غرفة إخوتي، تاركةً إياه مع أمي وأحلام المستقبل.





كانت الوليمة فاخرة. غصَّت السفرة على الطريقة الشعبية بأنواع عديدة من لحوم الطيور والدواجن والمطبوخات والمكرونة والأرز والشوربة والسلطات. جلسنا على المائدة نحن الثلاثة، أبي ومحمود وأنا. فضَّلت أمي أن تتناول الطعام مع إخوتي بعد أن ينتهي الضيف.

كان التعارف قد سبق الوليمة، وقال كل طرف ما بدا له من أفكار، وسمع ما لدى الآخر من معلومات وذكريات المنطقة التي يعيش فيها، وقال محمود بلغةٍ مباشرة:

- جئت لأطلب يد شهيرة.

- مرحبا بك يا بني.

هكذا رد أبي، محاولًا اصطناع الرزانة والتريث.

- من حقكم أن تتعرفوا على أسرتي.

- الخطاب يبين من عنوانه.

قالها أبي بشيء من المجاملة الذكية بما يعني الموافقة الضمنية.

- ستتفضلون بزيارة بيتنا، وتلتقون بأبي، وبعد موافقتكم نعلن الخطوبة.

- نسأل الله التوفيق.

بعد انصرافه كانت الفرحة تعم البيت كله، وأخذنا نترقب زيارتنا إلى عائلة محمود، ورحنا نخطط لما سوف نقوله، ونبهنا على إخوتي الصغار أن يلزموا السلوك المهذب عند اللقاء وفي البيت، وأن يراعوا الذوق والأدب في أثناء تناول الطعام، ورحت أعدُّ الأيام التي سأرى فيها أمه وأباه وإخوته.

يعيشون في بساطة الفلاحين. الفطرة تحكم سلوكهم وكلامهم. استقبلونا بترحابٍ بالغٍ، وقال الأب والأم كلامًا طيبًا يشي بطبيعةٍ متسامحةٍ، وروحٍ شفافة. لا يتصنَّعون ولا يظهرون غير ما يبطنون، وطموحاتهم لا تتجاوز الرغبة في الستر ورضا الله ذي الجلال والإكرام، وحسن الخاتمة.

رحب الناس بنا ترحيبًا واضحًا، وقالوا إن مصاهرتنا تشريفٌ لهم، وسألوا الله أن يتمم بخير. قبل أن ننصرف حددنا موعد

الخطوبة، والاستعدادات الخاصة بها.

عندما قال والد محمود: «نقرأ الفاتحة»، لاحظت أن أبي وهو الملهوف على إتمام الارتباط، بدا غير متحمسٍ لقراءة الفاتحة، وراح يقرأ السورة قراءةً آليةً بشفتيه فقط، لم أسمع منه لفظةً واحدةً من السورة. لماذا علاقته بالدين سطحيةٌ إلى هذا الحد؟ لماذا لم يتحدث إلينا في الدين أبدًا، ولم يوجهنا إلى الصلاة، ولم يصلِّ حتى الجمعة؟ يوم العيد فقط يذهب إلى المسجد ليسلم على الجيران والأصحاب ليستعرض بدلته الجديدة وخواتمه الذهب. عدا ذلك لا مكان للدين في حساباته. إنه في كل الأحوال لا يبالي بالفرائض والواجبات. وفي الزواج لا تهمه إلا الصورة الشكلية التي تتم من خلال الزغاريد والأغاني والطبل والزمر وما شابه.

أقمنا حفلًا محدودًا في بيتنا حضره الأهل والأقارب، وعدد من أصدقاء محمود وزملائه في القسم، ومجموعة صغيرة من زميلاتي، وقدم شبكته، وهداياه، وقضينا ليلةً طيبةً وجميلةً، غمرت فيها النشوة كيان أبي وأمي، وفرح إخوتي.

لم يحضر أعمامي، ولا جدي عبد الراضي. لم يَدْعُهم أبي.

كنت حزينة لعدم وجود جدي، فحبي له متجذرٌ في أعماقي، وولائي له كبير. كيف أنسى حبه وحنانه وعطفه؟

سألته بأسى:

- لماذا لم تدعُ جدِّي وأعمامي يا أبي؟

- سيحضرون في الزفاف.

كان يحاول التخلص من الإحراج بعدم ذكر السبب الحقيقي. ولم ألح عليه لأني كنت أعرفه.

صارت علاقتي بمحمود رسمية، وعرف الطلاب والمعيدون أني خطيبة محمود، ولم تعد مقابلاتنا، أو وجودنا معًا تثير ريبة الآخرين.

ظلت العلاقةُ طيبةً، ومتناميةً بيني وبين محمود. وكثيرًا ما زار بيتنا، وألفناه جميعًا أمي وأبي وإخوتي، وبنينا المستقبل في أحاديثنا وأحلامنا، وكنت في السنة الثالثة أتقدم بخطًا ثابتة، وأصبحت معروفةً لدى الأساتذة والطلاب، وكان بعضهم يلقبني بالمتفوقة فوق العادة. لا توجد مادةٌ واحدةٌ تقديرها أقل من ممتاز، لدرجة أن بعض أساتذتي قال لي ذات مرة: إنني لا أستطيع

الحصول على ممتاز في كل المواد! إنك طالبةٌ خارقة!

حتى الدكتور مختار كان منبهرًا بتقديراتي العالية. حين يلمحني في المحاضرة يشيد بي، ولكني أفسر إشادته على نحو آخر غير مستحب. لقد بدأ محاضرته في أوائل الفصل الثاني، من سنتي الثالثة بالكلية باسترجاع ما قاله قبل نحو عامٍ عن الحملة الفرنسية والاحتفال بها تحت مسمى العلاقات الثقافية بين مصر وفرنسا. كان بعض الطلاب قد نقلوا إليه ما دار بين الدكتور عمارة وبيننا، وهو ما أغضبه في حينه، وجاءت الامتحانات وأسفاره خارج البلاد لتؤجل ردَّه حتى فكَّر في تذكيرنا بالموضوع من جديدٍ ودون سببٍ مباشر.

قال الدكتور مختار في أول المحاضرة والامتعاض يلف كل كلمة يتفوه بها:

- أنا مع فرنسا. التنوير والحداثة والتقدم. من شاء أن يتبعني فأهلًا به، ومن شاء أن يعيش في الظلام والرجعية والتخلف فهو حرٌّ.

رد عليه طالبٌ بغضبٍ واضح:

- مع احترامي لرأي سيادتك؛ فرنسا اعتدت علينا وذبحت شعبنا، فكيف نحتفل بذلك ونسميه علاقاتٍ ثقافية؟

- هذا ماضٍ انتهى!

- ولكن الشعوب لا تنسى.

- وماذا يفيد عدم النسيان؟

حاول طالب آخر أن يخفف حدة الموقف، فقال بتأثر واضح، ولكنه أشعل النقاش:

- إن اليهود ما زالوا يلاحقون الألمان وغيرهم، ويطلبون التعويضات، ويقبضون على من يتهمونهم بالإساءة إليهم. ولا يحتفلون بمن اعتدى عليهم.

قال الدكتور مختار في حدةٍ:

- كل طرف حر في تصرفاته، ولكنك في مصر متخلِّفٌ، ويجب أن تتقدم مثل فرنسا التي تملك القوة والعلم والمعرفة والثقافة، وأنت لا تملك شيئًا!

هتفت طالبةٌ من وسط المدرج:

- أجدادنا علموا الغربيين كيف يستحمون، ويصبحون أكثر نظافةً. لقد قدمنا إليهم أساس مدنيتهم الراهنة. ولكنهم حاربونا بالتعصب والإرهاب منذ الحملة الصليبية الأولى التي انطلقت من فرنسا. من سان مونت كلير بقيادة بطرس الحافي. وقاموا بمجازر مروعة ضدنا، سجلها التاريخ في صفحات العار، وما زالوا يحاربوننا حتى اليوم، وينهبون ثرواتنا، ويتدخلون في شئون العرب والمسلمين للسيطرة والهيمنة. حتى لغتهم يريدون فرضها في كل مكان، وينشئون لها منظمة الفرانكفونية التي توسع إطار الهيمنة الفرنسية. ثم أريد أن أسأل حضرتك: لماذا اعتذر الغرب الاستعماري لليهود ولم يعتذر للعرب والمسلمين؟

- لا شأن لي بذلك. هل تريدون التقدم أو التخلف؟

قال طالبٌ آخر:

- نحن نريد أن نتقدم بالطريقة السليمة التي تحفظ استقلالنا وحياتنا وهويتنا.

- على أية طريقة؟

- نفعل مثل اليابانيين على الأقل، احتفظوا بهويتهم ومعتقداتهم

وعبادة الإمبراطور، وجعلوا المعلم مثل الوزير وله سلطات النائب العام ضد الانحراف الاجتماعي، وبحثوا عن المعرفة في كل مكان.

ظل السجال على هذا النحو، والدكتور مختار متمسك بأفكاره الموالية لفرنسا ومنطقها، والمنحازة للثقافة الغربية بخيرها وشرها، مع سخريته ضمنيا من الثقافة العربية الإسلامية. كان حادًا وعنيفًا في كلامه. إنه يرى في أفكار الشعب المصري جمودًا وظلاميةً ورجعيةً لا تليق بالقرن الحادي والعشرين.

لا يعنيني هذا الحوار الذي يتمسك فيه الدكتور مختار بمنطقه غير العقلاني الذي يزدري ثقافة أمته، التي أفهم قشورها للأسف، ولم أستوعب أصولها وأسسها. يعنيني أن أنجح بامتياز في مادته، وأظل الأولى، وأتفوق على الجميع. للدكتور مختار أن يعتنق ما يشاء من أفكار، ويؤمن بما يريد من آراء، ولو كانت رفض كل العقائد والتصورات. ولي أن أنجح وأستعد لأكون معيدة في الجامعة، وأرقي بعد ذلك حتى أكون أستاذة، هكذا أريد، ويريد أبي وأمي بالتبعية.

أما الدكتور مختار فشأنه يخصه.

تهامس الطلاب بأن له علاقة غير مشروعة بالدكتورة (ف) الأستاذة بالقسم، تسببت في طلاقها، وزواجها من آخر، وقيل إن زوجها الحالي يعلم بما بينها وبين الدكتور مختار، ويتغاضى عن لقاءاتهما في خارج بيته وداخله. وقد شاع الأمر بين الأساتذة وإدارة الكلية التي لم تستطع أن تتخذ موقفًا لأنها لا تملك دليلًا يدين الطرفين أو أحدهما. والمفارقة أن الدكتورة (ف) ليست متمكنة من تخصصها، بل هي ضعيفة ضعفًا واضحًا، وكثيرًا ما تلجأ إلى أساتذة آخرين من أجل مساعدتها في بعض الأمور العلمية، ويبدو أنها حصلت على الماجستير والدكتوراه بمساعدة آخرين أيضًا.

في محاضراتها، تكتب بعض العناصر على السبورة، وتقول: طالعوا الموضوع في الكتاب، في صفحة كذا، وفي آخر الفصل تملي سؤالين أو تكتبهما على السبورة، وتخبرنا نحن الطلاب أن الامتحان سيكون سؤالًا من هذين السؤالين! يفرح الطلاب ويهللون لأنها كشفت لهم الامتحان. ولهذا ينجحون جميعًا في مادتها بتقديرات مرتفعة.

صار من العادات المميزة للدكتورة (ف) أن تجلس في

المحاضـرة، وتضـع سـاقًا علـى سـاق، وتشـعل سـيجارة أجنبيـة، وتنفث دخانها في الهواء الخـانق، ولا تبـالي بثيابهـا المكشـوفة غيـر المحتشمة التي تثير تعليقات الطلاب همسًـا في أثنـاء المحاضـرة، وجهرا بعد خروجها.

علق أحد الطلاب بخبث، وهي تغادر المدرَّج:

- إنها تظلم نفسها لأنها ليست جميلة.

رد عليه زميل:

- دعها في حالها.

- ألا تلاحظ أن لها وجه رجلٍ ينقصه الشـارب، وأنفًـا أفطس، وعينين جاحظتين، وشعرًا يشبه بقايا ذيل حصانٍ رماديٍّ عجوز؟

- الجمال جمال الروح!

- أحلف بكل الأيمان أنها لا تملك هذا ولا ذاك!

استعاد آخر ما قالـه بعـض المعيـدين لـبعض الطـلاب تعليقًـا على سفرها المتعدد إلى بلاد الغرب وأميركا: «إن الـدكتورة (ف) لها علاقات وثيقة ببعض الأجهزة المهمة في الدولة، وتسـتطيع أن

تسافر في أي وقت دون قيود بل يتم التسهيل لها بمشاركة السفارة الفرنسية، التي تدعوها إلى احتفالاتها ومؤتمراتها وندواتها دون أن تعد بحثًا أو ورقة علمية، وهذا يفسر التغاضي عن مخالفاتها داخل الجامعة وخارجها».

بالنسبة لي لا يهمني أيضًا أمر الدكتورة (ف) ولا ما يقال عنها، فهي تحترمني وتعترف بتفوقي الذي تعبر عنه أوراق الامتحانات. صحيح أنها أحيانًا تتلفظ ببعض الألفاظ الخارجة، أو تسبُّ الدين، ولكني لم أسمع منها ما يسيء إليَّ.

من المؤكد حين أكون أستاذة جامعية، لن أفعل ما تفعله. سأكون نموذجًا آخر، فأنا محجبة وإن كنت لا أصلي. ومحافظة على شرفي مهما كانت المغريات، ثم إني أحظى باحترام زملائي وزميلاتي، وسأجعل طلابي يحترمونني، وأتعامل معهم مثل الدكتور عمارة.

إني أنتظر محاضرة الدكتور عمارة بشوق، لأني أفيد منه علمًا وحياة.

◆◆◆



في يوم شتائيٍ خالٍ من الأمطار، ولكن الغيوم تظلله، وتحجب أشعة الشمس، تبادلت الحديث مع محمود عن الأحوال في الجامعة والبيت. اطمأن على أسرتي، وسألته عن أسرته، فقال بصوت فيه رنة قلق:

- الحمد لله. نحن جميعًا بخير.
- تبدو مشغولًا بشيء؟
- كلا. بعض الشواغل البسيطة.
- هل لي أن أعرفها؟
- بالطبع. لا شيء يخفى عليك.
- أرجو ألا يكون هناك ما يزعج.
- والدي يعاني بعض المتاعب الصحية.
- هل فحصه الطبيب؟
- أجل!

- وماذا قال؟

- متاعب معتادة تتعلق بالكبد.

سألت باهتمام واضح:

- العلاج متاح؟

- كتب أدوية، وطلب تحليلات، وأشعَّة.

- لعل النتيجة تبشر بخير.

قال باستسلام:

- ربنا كريم.

أحسست أن الأمر يتجاوز المتاعب العادية. وأن هناك ما ينبئ عن شيء مزعجٍ فعلًا، تدل على ذلك ملامحه وقسماتُ وجهه. ما عرفته بهذه الصورة في الفترة الماضية، ولم أره مهمومًا كما أراه الآن. حاولت أن أخرجه من همومه، ولكنه كان يشرد بعيدًا عني، ثم يعود معتذرًا، ويسعى إلى تجاوز الحديث في موضوع أبيه. إنه يحاول أن يهب لي الاطمئنان بكلامه الذي لا تدل عليه ملامحه.

عرفت بعد فترة أن والده قد نُقل إلى المستشفى. وأن بعض أفراد الأسرة يرافقه، وأن الوضع جِدُّ خطير.

زرته مع محمود أكثر من مرة. كان الرجل يبدي استسلامًا واضحًا لقدر الله. يقول:

- الأعمار بيد الله. لن يستطيع الطب أن يطيل في عمري أو يقصر من أجلي.

- شفاك الله، وبارك في عمرك.

قلت بإخلاص، وأمل كبير في شفائه العاجل.

في إحدى الزيارات، فوجئت بمجموعة من هيئة التدريس والمعيدين بينهم الدكتور عمارة يدخلون الغرفة لزيارة المريض مجاملة لابنه، وقد حملوا بعض الهدايا، ويلتفون حول سريره، ويحاولون رفع روحه المعنوية. أخذ الدكتور عمارة يمازح الرجل، ويقول له:

- إنك أفضل من شباب اليوم. استمتعت بالسمن البلدي أيام زمان، لا السمن النباتي الذي تربينا عليه.

علق أحد الزائرين، وهو يبتسم:

- أكلَ من الحقل غير الملوث بالمبيدات والكيماويات. وأدرك الزراعة الحلوة بمياه الفيضان.

قال الدكتور عمارة:

- النيل الآن صار مصدرًا لكل النوائب. جعلوه مجرًى للصرف الصحي، ومخلفاتِ المصانع المسمَّمة. نسأل الله السلامة.

نظر في ساعة يده، وقال أوشك وقت العصر أن ينتهي. اسمحوا لي أن أصلي، وأدعو للوالد الطيب -وأشار بيده إلى والد محمود- ومن شاء أن ينضم إليَّ فليسرع.

بعد انتهاء الصلاة رفع الدكتور يديه إلى السماء وراح يدعو إلى الله ويبتهل من أجل شفاء المريض. ووجه كلامه إلى الزائرين الملتفين حول السرير:

- أمرنا الإسلام أن نأخذ بالأسباب. وهي هنا العرض على الأطباء وتناول العلاج، ثم الدعاء إلى صاحب الحول والطول، والقدرة والرحمة. إن رحمته واسعة تشمل من في السموات والأرض، وهو الذي يهب الشفاء ويمنح الحياة.

ثم تلا الآية الكريمة:

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾. صدق الله العظيم.

ساد الغرفة جوٌّ من الإحساس بالراحة، ولمعت عينا المريض بالأمل، وكان مفعمًا بالحيوية مع ضعفه البادي للعيان. وقد نادى على الدكتور عمارة، وطلب منه في إشارة بيده أن يسرَّ إليه بشيء، وفوجئ به يقبِّله على خده، ويدعو له ويسأل الله أن يوفقه في حياته.

عرفت بعد هذه الزيارة بأسابيع قليلةٍ أن الرجل يحتاج إلى فص كبد، لينجو من عذاب المرض الذي ينذر بالهلاك.

سأل محمود عن طريقة الحصول على المطلوب، فقيل له: «يفترض أن يكون متوافقًا مع حالة المريض، وأن تتوفر فيه خصائصُ بيولوجية معينة يعرفها الأطباء»...

راح محمود يبحث عن المطلوب لأبيه، ولكنه فوجئ أن المسألة لها محاذيرُ كثيرةٌ، ومساوماتٌ صعبة، وأن القائمين على بيع المطلوب يشبهون العصابات التي تستغل احتياج بعض الناس وتمارس استغلالها على نحو شيطاني يؤدي إلى مصاعب

عديدة، تقود أحيانًا إلى مخالفة القانون، والوقوع تحت طائلته.

لا أعرف تفاصيل هذه المصاعب، ولكنى فوجئت بمحمود يقدم نفسه للأطباء بوصفه ابن المريض الذي سيتبرع له بالمطلوب، وقد وجد الأطباء الصفات المطابقة في الابن المتبرع لوالده.

أذهلني الأمر! كيف يضحي شاب في مقتبل الحياة من أجل عجوزٍ يودِّع الدنيا؟

العملية غيرُ مضمونةٍ، ومخاطرُها كثيرة.

سيتوقف على نجاحها أو فشلها مستقبلي مع محمود.

قلت لأبي:

- ماذا أفعل ومحمود مصمم على المخاطرة من أجل والده؟

قال دون ترددٍ:

- لا نتعلق في الحبال الذائبة!

- تقصد...؟

- إذا أصرَّ فهو وشأنه.

- ألا ينبغي أن نصبر حتى تنجلي المسألة؟

- كلا! حاولي إقناعه بالتخلي عن إصراره.

- إنه لا يريد أن يدخل في متاهة المتبرِّعين، ومخالفة القانون.

- فليترك لي هذه المهمة، إذا كان يمكنه دفع المبلغ للمتبرع.

- يبدو أنه لا يملك المبلغ كله –وهو كبير كما تعلم.

- على استعداد أن أقرضه ما يتبقى بإيصال أمانة!

- وإذا لم يقبل؟

- عليه أن يتحمل المسئولية!

التقيت بمحمود مرات عديدة، ورجوته أن يتخلى عن إصراره على التبرع بنفسه، وأن العقل يقول ذلك. لم يرد.

فوجئت به بعد أيام قليلة يرقد بجوار أبيه عقب إجراء العملية لكليهما. قال الأطباء إن العملية نجحت، والشفاء يستغرق وقتًا.

وجدت منظرهما لا يشي بأي دليل على الشفاء، فكل منهما يبدو واهنًا مُصْفَرَّ الملامح، محطمَ البنيان. منظرهما يدل على النهاية وإن تأخرت بعض الوقت.

نقلت لأبي ما رأيته، فأكد موقفه السابق، وزاد عليه:

- لا تذهبي لزيارته بعد الآن!

- ولكن الواجب يفرض أن أكون بجواره.

- الأمر غير مستحب بالنسبة لك.

- لنفترض أن النهاية مؤكدة، ماذا يقول الناس؟ تخلت عن خطيبها في محنته، وتسوء سمعتي في آذانهم؟

- لا تهتمي.

- ألا أذهب على فترات طويلة؟

- كلا!

أذعنت لإرادته، قطعت خطوط التواصل. بعد شهر جاءتني منه رساله مع أحد زملائه الذين يزورونه:

«عزيزتي شهيرة

تحياتي وأشواقي...

أُملي هذه الرسالة على زميلي الذي يحملها إليك لأني لا أستطيع الإمساك بالقلم. ما زلت في مرحلةٍ صعبة. طمأنني الأطباء أن الشفاء قادمٌ بإذن الله، ولكنه يحتاج إلى وقت. افتقدتك

في الفترة الماضية. أنتظرك يوميًا، ولكنك لا تأتين. آمل أن تكوني وأسرتك بخير».

مسكينٌ خطيبي. لديه أمل أن يعود كما كان، ولكن هيهات!

أخبرت أبي بالرسالة، ومضمونها.

حاولت أن أقنعه بالتريث في اتخاذ موقف حاسم يقطع ما بيني وبينه. ذكرته أنه ما زال يحمل المودةَ لنا. بل إنه تصور أن انقطاعي عنه بسبب مكروهٍ جرى عندنا. مشاعره طيبة تجاهنا ويفكر فينا وهو في غمرات المرض. إني أقدر هذه المشاعر، وإن كنت أشاطر أبي موقفه، فقد سألت نفسي: «ماذا سيبقى من محمود، والهزال يحكم وجوده، ويصنع مستقبله إذا ظل حيًا، ولم تأت النهاية قريبًا». يبدو أن حظي سيئ وغير طيب، ولكن الانفصال قبل الاقتران أفضل من التَّرَمُّلِ مبكرًا. وهل هناك فرصة للاقتران أصلًا؟ فلأبحث عن نصيبي مع شخص آخر.

تذكرت الآية الكريمة التي تلاها الدكتور عمارة قبل إجراء العملية:

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾.

ولكن هل يؤمن أبي بهذه الآية؟ إنه لا يؤمن إلا بما هو محسوس وممسوك في يده. وإني أستغفر الله من أفكار أبي حول هذه الآية وعقائد الدين. إنه لم يوافق على الانتظار لبعض الوقت، ويريد أن تتم القطيعة في الحال! ما أغربك يا أبي؟

محمود شابٌّ طيبٌ ومهذبٌ ومجتهدٌ ومؤدبٌ، أهله ناس طيبون... هل سأجد مثيلًا له؟

لا أدري!





٨

عزمت فيما بيني وبين نفسي أن أزور المريضين.

كانت المفاجأة أن العجوز بدأت تدب فيه الحياة. أما الشابُّ فبدا أقرب إلى الموت منه إلى الحياة!

علت السعادة ملامح محمود الواهنة الباهتة حين رآني. وحاول أن يرفع رأسه ونصفه الأعلى ليسلم عليَّ، ولكن الأمر استعصى عليه. تغيَّر شكلُه كثيرًا، صار الهزال الشديد علامةً بارزة على هيكله العظمى. هل سيعود هذا الكائن إلى الحياة مرةً أخرى. سمعت آية كريمة منذ سنوات، تقول: ﴿يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾، وهي تتعلق ببعث البشر يوم القيامة. هل يمكن أن تنطبق هذه الآية على محمود؟ لا أعرف!

جاملته ببعض الكلمات الجوفاء. كان يتكلم بصعوبة، وتبدو في كلماته حرارة يفتقدها جسده الواهن، ولكني كنت أقابلها ببرودٍ غريب، لا أدري لاحظه أم لا؟

بعد وقت قصير استأذنته لأنطلق إلى البيت. كانت نظراته

تحمل رجاء بالبقاء، ولكني خذلته وحزمت أمري على المغادرة، وهو ما جعل سحابة قاتمة تظلل وجهه الشاحب.

لا أنكر أنه شابٌّ مهذبٌ ومحترمٌ، ولا أظن أنني سأجد نظيرًا له؟ ولكن هل أتزوج ميتًا أو شبه ميت؟

لم أخبر أبي بهذه الزيارة. وقد وجدت فيها ما يعزِّز قراري بتأييد موقفه، الذي ربطته بالانتظار بعض الوقت. إذا جاءت النهاية القدرية، يكون الحل الإلهي أفضل. وإذا لم تأت وخرج من المستشفى واهنًا وضعيفًا، عندئذ يمكن إبلاغُه بالقرار، ويفتح الله طريقًا لكل منا، فالأمر في النهاية قسمةٌ ونصيب!

خرج بعد أسابيع، وأخذ يتردد على مكتبه، ولكنه تردد الضعيف العاجز. لم أذهب إليه فور عودته، ولكن انتظرت بعض الوقت. قاطعت المكتبة والأماكن التي يحتمل أن نتقابل فيها، حتى جمعت عزيمتي، وحملت إليه شبكته وهداياه، وأعلنته بخبر الانفصال.

انطلقت لا ألتفت ورائي. لا أعرف كيف كانت حاله وأنا أمضي خارجة من مكتبه. لا بد أنه كان في أسوأ حال. لم تسعفه

صحته أن يجري ورائي ويحاول إثنائي عن قراري. أو قرار أبي.

في المدرَّج عرفت زميلاتي ثم زملائي بخبر فسخ الخطبة. واساني بعضهم، ولامني بعضهم سرًا على تسرُّعي، ورأى أن المروءة كانت تقضي أن أقف إلى جانبه حتى النهاية إذا كنت أريده حقًا، وتهكمت بعض الزميلات فيما بعد على قراري، وقالت زميلة ماكرة، في خبث واضح:

- إنها تريده على الفرَّازة. سليمًا معافى قويًا يهدُّ الجبال!

قالت أخرى بالأسلوب ذاته:

- شهيرة، لها مزاج خاص!

كان ردُّ الفعل العام لدى بنات القسم وصبيانه مغلَّفًا بالحزن والأسى. لا أعرف إن كانوا يأسفون من أجلي أو من أجله أو من أجلنا معًا. كلهم كانوا آسفين، حتى لو فضَّل بعضهم التعبير عن ذلك بالمزاح والعبارات الماكرة. أما أبي فقد كان مرتاحًا لما فعلته وقال لي كأنه يتحدى ما جري وكان سببًا فيه:

- ستتزوجين من هو أفضل منه ويليق بك، ويكون أستاذًا في الجامعة أيضًا!

- لنترك الأمر لله.

أبي لا يعترف إلا بالواقع الملموس. كان يتصور أن الخطاب سيقفون على بابي إذا فسخت خطبتي، فأنا جميلة لا شك في ذلك، وأحصل على الامتياز سنويًا باعتراف الكلية والأساتذة والطلاب جميعًا. ولكن الشَّبَكة لم تصد سمكًا!

يبدو أن فسخ الخطوبة يصنع سُمعةً غيرَ جيدةٍ، تجعل من يقبل على طلب اليد حَذِرًا ومُتشكِّكًا، ويتساءل لماذا فُسخت الخطبة؟ ومن هو الطرف الذي أقدم عليها؟ وهل هناك أمورٌ غيرُ طيبة لدي هذا الطرف أو ذاك؟ وإلى أي حدٍ كانت علاقة الخطيبين؟ أسئلةٌ كثيرةٌ تُطرح عند التقدم لفتاةٍ مخطوبةٍ سابقًا. كثير من الناس يفضل أن يَغلقَ البابَ ويبحث عن خطيبةٍ لم تُقم حفلًا من قبل.

وهكذا راحت الأيام تمضي، وأنا أحاول أن أركز على صناعة الامتياز لأكون معيدةً مهما كلفني الأمر. لا ألتفت الآن إلى خطيبٍ جديد، وإن كان عدم وجوده يحزُّ في نفسي، فالفتاة مهما كانت تملك من جمالٍ ومالٍ ومستوًى علميٍ عالٍ لا يكتمل

وجودُها إلا بالزواج، والأمومة التي يسمُّونها الجمال الحقيقي. وأنا أريد هذا الجمال بلا ريب، ولوكان أبي يريد شيئًا غيره.

في السنة الرابعة تعرفت على أحد الطلاب في محاضرةٍ عامَّة في المدرج الكبير بالكلية. يبدو فارقُ السنِّ بيننا واسعًا إلى حد ما. لعله خمسُ سنواتٍ أو ست. إنه يدرس منتسبًا للحصول على الليسانس في تخصص آخر، يفيده في عمله إلى جانب البكالوريوس الذي حصل عليه من قبل. هو ذكي بلا شك، لكنه أقرب إلى الفوضوية، يهتم بالقراءة العامة والثقافة الشاملة، وينظر إلى بعض الأساتذة نظرة إدانة، ويرى أنهم لا يصلحون للتدريس، وقد كشف أمامي سرقات بعضهم:

- انظري. هذا أستاذ يسرق كتابًا من آخر، ولا يكلف نفسه عناء تعديل ما يسرقه.

قلت له:

- كيف؟

- ها هو يبدأ أول صفحات كتابه دون عنوان أو تمهيد بالعبارة التالية: «ويقول (فلان) إن الشعر الحديث مرَّ بعدة

مراحل، أولها...»، ويستمر في نقل صفحات وصفحات كما ترين، ثم ينتقل إلى كتاب آخر -انظري- وينقل منه صفحات وصفحات، ويكرر النقل من كتب أخرى حتى نهاية صفحات كتابه، أو كتاب غيره بالأحرى، ثم يبيعه للطلاب بسعر عالٍ، ومن لم يشتره يكون مصيرُه الرسوب، وفي محاضراته (يشخط وينطر)، ويسبُّ ويلعن، ويجعل من نفسه نظير فرعون، الذي يخاطب الناس: أنا ربكم الأعلى!

قلت تلقائيًا:

- أستغفر الله العظيم!
- لا يعنيهم إلا المال، والاستعلاء.

عرفت أنه ريفي من إحدى قرى الشرقية، ووالده يعمل في وظيفةٍ مرموقة، وقلت في سِرِّي: «لعله يفكر في طلب يدي»، فهو مناسب. لديه الوظيفة، والإمكانات المادية، والطموح، وإن كان غير منَظَّم في دراسته وحياته. يحيا بطريقة من يعيش للحظة الراهنة ولا يفكر في الغد أو يعمل حسابًا لما سيأتي، ولكنه بالتدريب والمتابعة يمكن أن يستجيب للنظام وتتحسن نظرته للمستقبل.

تكـررت لقاءاتنـا في حـدائق الجامعـة، نثرثـر مـا شـاءت لنـا الثرثرة، في أمور هامشية أو تعليمية حتى يدعونا داعي الانصراف، وقد نستكمل ثرثرتنا عبر الهاتف في المساء.

ألمحت إلى أمي راغبةً أن تشاركني مـا أفكـر فيـه. أحسسـت أنها غير متحمسة لأي علاقة، أو الكلام عـن أي مشـروع للـزواج، فقد شكلت لها تجربتي مع محمود صـدمة صـامتة لـم تعـبر عنهـا، ولم تعلق عليها:

- يمكنك التحدث مع أبيك، فلا رأي لي!
- أنت الخير والبركة يا أمي.
- أبوك صاحب القرار.
- ورأيك مهم أيضًا.
- الأمر يخصك بالدرجة الأولى. ولا كلام بعد كلام أبيك.

عجبت لنفسي. كيف أفكر في أمر مخلوف وهو لـم يحـدثني في أمر الزواج؟ ألا يمكن أن يكون متزوجًـا وأنـا لا أعلـم؟ وكيـف أستبق الأحداث من جانبي؟ ألا يمكن أن يكون تفكيره بعيـدًا عـن

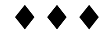
الأمر؟ صحيحٌ أنه يناقش معي موضوعات بعيدة عن العواطف. لم أسمع منه كلمةَ غزلٍ يهبها لي عبر الثرثرة كما يفعل بعض أقرانه، يبدو من الذين لا يتسلون بالبنات، لقد كان منبهرًا بحصولي على الامتياز في كل المواد، وكان يشيد بعبقريتي وتنبأ لي بمستقبل عظيم. وفي الوقت نفسه يعترف لي أنه لا يهتم بالمواد التي يدرسها، أنه ينظر في الكتاب نظرات عابرة في أيام الامتحان، فمرة ينجح في المادة بمقبول، وأخرى بجيد، وثالثة بجيد جدًا، ونادرًا ما يحصل على امتياز. التقدير يتوقف على «الحالة التي أكون عليها أيام الامتحان»، يقول مخلوف. إن كنت مشغولًا فلا أمل بتقديرٍ مرتفع. وإن كانت هناك فسحة من الوقت ارتفع التقدير. وأحيانًا يكون التقدير ضعيفًا. ضحك وهو يقول لي:

«أعطاني الأستاذ في مادة من المواد صفرًا. عندما طلبت مراجعة ورقة الإجابة، سألني الأستاذ: ماذا كتبت في الإجابة؟ أخبرته بما كتبت كاملًا. تساءل: هذه إجابة صحيحة، إذا كيف حصلت على صفر؟ كان هناك بعض الأساتذة الحاضرين، قاموا بقراءة إجابتي، فقالوا إنه يستحق جيد جدًا على الأقل. كان الأمر

مثيرًا، ولكني نجحت دون امتياز مثلك؟» واستغرقه الضحك للمفارقة الغريبة التي يبدو أنها حدثت عن خطأ غير مقصود من الأستاذ لأسباب خاصة به.

لعل سن مخلوف كانت من وراء هدوئه الملحوظ، واختلافه عن الطلاب الأصغر منه، الذين يبدون أكثر ميلًا إلى الحركة والنشاط.

كانت عواصف الربيع الرملية تثبت وجودها مع اقتراب نهاية الفصل الثاني في السنة الرابعة حيث أتأهب للحصول على الليسانس، وأشهد تحقيق الحلم الجامعي.





في الشهر الأخير قبل الامتحانات قيل لنا إن محاضرات الدكتور سعيد محفوظ ستتوقف، وسيأتي بدلًا منه الدكتور رمضان عبده.

الدكتور سعيد في أواسط الثلاثينيات. حصل على الدكتوراه من الكلية، وزار فرنسا أكثر من مرة، ولا نشاط له في المجال الثقافي العام، ويبدو منكفئًا على نفسه، ولا يرغب في توسيع علاقته بالطلاب خارج المحاضرة:

قلت لواحد من المعيدين:

- هل انتقل الدكتور سعيد من الكلية؟

رد مؤكدًا:

- كلا!

- هل سيعود مرة أخرى لاستكمال المقرر؟

- لا أظن!

- هل هو مسافر؟

أخرج من حقيبته صحيفة الصباح، وأشار إلى خبر مقتضب في صفحة الحوادث، يقول:

«قررت جامعة (...) سحب الدكتوراه من السيد (س. م) المدرس بكلية الآداب، ليعود مدرسًا مساعدًا، بعد اكتشاف سرقته لرسالة الدكتوراه من باحثٍ فرنسي، وتحويله إلى الجهات القضائية لمحاسبته جنائيًا وفقًا للقانون. وكانت بعض الصحف الفرنسية الصادرة في باريس قد أشارت إلى قيام الباحث المصري بسرقة البحث من باحثٍ فرنسيٍ في جامعة السوربون، وأخطرت الجامعة المصرية بذلك. كما تحركت السفارة الفرنسية بالقاهرة لإبلاغ الجامعة بالسرقة، وطلبت الإفادة بالإجراء الذي سيتم اتخاذه في الموضوع»!

هرع الطلاب إلى الدكتور مختار لسؤاله حول الموضوع. بدا غير متحمسٍ للكلام، فقد كان مشرفًا على الدكتور سعيد، ويعد المسئول الأول عن منحه الدكتوراه. قال بغير مبالاة:

- الموضوع بسيط. نقل بعض الفقرات من دون أن يشير إلى المصدر.

قال أحد الطلاب:

- ولكن الخبر المنشور اليوم يشير إلى أنه نقل الرسالة كلها.

- القضاء يحكم في النهاية. والأمر لا يعدو أن يكون إهمالًا في ذكر مصادر النقل.

- الصحف الفرنسية تقول إنها سرقة واضحة.

- اتركوا الأمر للقضاء.

- مجلس التأديب هو قضاءٌ أيضًا، وحكم أنه سرق.

- قضاء ابتدائي.

سأل طالب ماكر:

- هل توافق على السرقة؟

نظر إليه الدكتور مختار بغضب واضح:

- هل قالوا لك إنني لص؟

- العفو يا دكتور. إنه مجرد سؤال.

- ليس سؤالًا، ولكنه اتهام!

- معاذ الله أن نتهمك يا دكتور.

- الكلام انتهي. اذهبوا إلى محاضراتكم.

خرج الطلاب وبعضهم يتمتم بكلمات غاضبة مبهمة ضد الدكتور مختار، وقادتهم أرجلهم إلى الدكتور عمارة فقد كان مكتبه قريبًا من مكتب الدكتور مختار، وهو مفتوح دائمًا ولا يخلو من وجود بعض طلاب الدراسات العليا، أو طلاب الليسانس. سواء كان يجلس بداخله أو في المحاضرة أو مسجد الكلية لصلاة الظهر عادة.

- هل قرأت هذا الخبر يا دكتور؟

وقدم أحد زملائنا الجريدة إلى الدكتور عمارة.

نظر في الخبر، ثم نظر إلينا، ثم قال:

- وما الذي يعنيكم في الموضوع؟

- إنه أمر يخص القسم بلا ريب.

قال أحد الطلاب:

- يخص هيئة تدريس القسم وحدها.

وقال آخر:

- الموضوع يتعلق بالمادة التي يدرسها، وهو لن يحاضرنا مرة أخرى، وسيدخل بدلًا منه الدكتور رمضان عبده فهل سيكمل، أو يخصص كتابًا آخر.

- لا مشكلة هناك.

كان الدكتور عمارة يحاول أن يهدئ الطلاب، ويطمئنهم ويصرفهم عن تناول الأمر حرصًا على مشاعر الزميل المتهم أولًا، ولأن الكلام قد يفتح الباب للنيل منه، وهو ما قد يندفع إليه بعض الطلاب المتهورين. لا أدري لماذا أحسست أن القسم مقبلٌ على وضعٍ غيرِ مُريح، مع أني مجرد طالبةٍ فيه ليس إلا. هل سيؤثر ذلك على مستقبلي. الله وحده أعلم!

لقد جلس الدكتور عمارة مع الطلاب وأنا معهم، وراح يناقشهم بهدوء:

- هذه الحالة واحدة مما يحدث في المجتمع وهو كثير.

سأل أحدهم:

- ماذا تقصد يا دكتور؟

- أقصد أن المجتمع فيه مؤسسات كثيرة وتقع فيها مثل هذه الأحداث، والقضاء في النهاية يحكم على المتهم بالإدانة أو البراءة. أليس كذلك؟

- بلى.

رد أحدهم. بعده قال الزميل الذي طالع خبر الدكتور سعيد:

- في هذه الصحيفة، آمل أن تقرؤوا الخبر الذي فوقه.

- ماذا يقول؟

- خذ الصحيفة واقرأ. وأعطاها لزميل آخر وأشار بإصبعه إلى الخبر.

قرأ الطالب:

في قضية «فساد المليار دولار»: إحالة مسئول سابق بشركة للبترول و ٢ آخرين للجنايات.

أمر النائب العام المستشار (...) بإحالة مسئول سابق بشركةٍ للبترول، واثنين آخرين إلي محكمة الجنايات، لاتهامهم باختلاس ما يقارب المليار دولار من أموال الشركة وتهريبها إلى دولٍ أخري.

كانت نيابة الأموال العامة قد باشرت تحقيقاتها في القضية المعروفة إعلاميًا باسم (فساد المليار دولار) حيث كشفت التحقيقات قيام المتهم الأول الذي كان يعمل نائب رئيس مجلس إدارة والعضو المنتدب للشركة بتحويل عدة مبالغ من حساباتها إلى أحد البنوك بسويسرا ودولةٍ أخرى بإجمالي ٩.٥ مليون دولار واستولي عليها لنفسه، كما حول المتهم الثاني عدة مبالغ لحساب شركته للتجارة المملوكة له، التي أسسها خصيصًا ليتخذها ستارًا لتحويل الأموال إلي حساباته، بإجمالي مبلغ ٤.٢٧٢.٥٠٠ مليون دولار فضلًا عن تحويله عدة مبالغ لحسابه الشخصي إلى أحد البنوك الخليجية بإجمالي مبلغ ٤.٤٥٣.٤٤٣ دولار، وأسفرت التحريات عن قيام المعروض ضدهما بغسل الأموال حصيلة نشاطهما الإجرامي.

كما ثبت في التحقيقات من سؤال (...) نائب رئيس مجلس إدارة الشركة، أنه في خلال شهر فبراير (...)، قيام كل من المتهم الأول والمدير المالي للشركة السابق بتحويل مبلغ ١٨ مليون دولار من حسابات الشركة لدي بعض البنوك (موضحة بالأوراق)، إلي ثلاث جهات دون وجه حق.

وقد تقدم مدير إدارة القضايا بأحد البنوك الدولية بمستندات تؤكد أن البنك يسهم بنسبة ١٥٪ من مال الشركة وقيام المشكو في حقيهما بالاستيلاء علي أموال تلك الشركة بحوالي مبلغ ٩٥٠ مليون دولار، في الفترة من ٢٥/ ٥/ (...) حتي ٢٩/ ١٠/ (...).

اندهش الطلاب لحجم السرقة، وقال أحدهم وهو يعبر عن خيبة أمله:

- يعني ما يقرب من مليار دولار؟

علق آخر بشيء من السخرية:

- إن الحكومة تصنع عجين الفلاحة لتقترض من بعض الجهات الدولية مثل هذا المبلغ!

قال الدكتور عمارة، بروح الأب الحاني:

- إن المجتمع يا أبنائي مليءٌ بالفساد، والانحرافات. وطالما فقد الناس الضمير -أقصد معظمهم- توقع كل شيء، وما حادثة كليتنا أو قسمنا إلا الشيء اليسير مما يحدث في واقعنا المؤلم.

سألتُ الدكتور عمارة في حيرة:

- ما الذي يدفع موظفًا كبيرًا في شركة تدفع أجورًا عالية لرئيس مجلس الإدارة، ونائبه، وللموظفين الكبار، بل تدفع أجورًا للموظفين الصغار أيضا تفوق أجور الموظفين الكبار في مؤسسات حكومية؛ إلى مدِّ أيديهم إلى المال الحرام؟

قال دون تردد:

- الطمع والجشع وعدم الرضا. إنهم لا يعرفون مقولة: «الحمد لله». كان آباؤنا الفقراء يحمدون الله ويشكرونه في السراء والضراء. وإذا ضاقت بهم الدنيا يقولون: يا فرج الله. أما هؤلاء فلا يخافون الله، ولا يخافون الحكومة!

قال طالب، وهو يحاول الابتسام محاولًا تغيير جو الجلسة الكئيب:

- إنهم الآن يقولون: هل من مزيد؟

قال الدكتور عمارة:

- إنني أعرف المتهم الأول في هذه القضية معرفة شخصية.

فتح الطلاب أفواههم دهشةً واستغرابًا أن يعرف الدكتور مثل

هذا الشخص. تجاوز دهشتهم واستغرابهم، وقال لهم:

- إن هذا الشخص خريج إحدى الجامعات الأميركية العريقة، وعاش في أميركا التي تطبق القانون والعدالة بصرامة، ولا تسمح لأحد أن يعتدي على المال العام أو الخاص، ووالداه من الشخصيات المرموقة في المجتمع، الأب موظف كبير جدًا في إحدى مؤسسات الدولة المهمة، والأم سيدة مجتمع مرموقة، ولها علاقات متشعبة، والأب والأم يحظيان باحترام كبير لدى من يعرفونهما.

- لماذا سقط الابن في بئر الانحراف؟

قال الدكتور عمارة بهدوء:

- إنه الطمع والجشع وعدم الرضا! وعدم الحسم في مواجهة المنحرفين. وهو ما أحذر منه.

كأن كلماته الأخيرة نزلت عليَّ كالصاعقة «الجشع. الطمع. عدم الرضا»، فحاولت أن أنزع شيئًا من داخلي، فقلت له:

- هل يعني ذلك يا دكتور ألا يكون هناك طموح واجتهاد وبحث عن الأفضل؟

- ليس الأمر كما تتصورين مطلوب أن نجدَّ ونكدح ونعمل

في إطار مشروع. علينا العمل وعلى الله التوفيق. أما حين نمد الأعين إلى ما متَّع اللهُ به الآخرين، أو إلى أموال الدولة ونسعى إلى خطفه واحتوائه، فهذا سلوك غير مشروع. اعمل قدر المستطاع، وإذا لم تحقق المأمول، فقل: الحمد لله، وابدأ العمل من جديد، هذا هو الرضا.

قال الطالب الذي قرأ الخبر في الصحيفة بنوع من الحزن والتقزز:

- وهذا حادثٌ لا يرتبط بالضمير فقط، بل بالغريزة الشاذة المنحرفة التي حادت عن الطريق السوي:

«أم تلقى بطفلها داخل سيارة بعد وفاته لتناوله أطعمة من صندوق قمامة!»

في واقعة مأساوية، تجردت أم من مشاعر الإنسانية؛ والقت بطفلها (عمره عامان) في صندوق سيارة ربع نقل بعد وفاته نتيجة إصابته بإعياء شديد عقب تناوله أطعمة من صندوق قمامة بالمطرية.

وألقى ضباط الإدارة العامة لمباحث القاهرة القبض على

الأم وأمر اللواء مدير أمن القاهرة بإخطار النيابة للتحقيق.

وقد اعترفت المتهمة بارتكاب الواقعة وقررت أنه في أثناء قيامها بجمع القمامة شعر نجلها بحالة إعياء نتيجة تناوله بعض بقايا المأكولات من صندوق القمامة، فتوجهت به إلى مستشفى المطرية التعليمي، وبعد تبين وفاته قامت بحمله إلى خارج المستشفى وتخلصت من الجثة بإلقائها في السيارة ربع النقل، مكان العثور عليه خشية تعرضها للمساءلة القانونية!

- هل هذه أم؟

تساءل الزميل في أسى بعد قراءة الخبر.

رد عليه آخر:

- وهل هذا مجتمع؟ من الذي يجعل أمًّا تعمل في الزبالة بينما طفلها يأكل منها حتى يلفظ أنفاسه؟

◆ ◆ ◆



لم أصدق نفسي! مخلوف يطلب يدي؟

كان الربيع قد بدأ ينشر نوعًا من الدفء الملموس، ولكن أثر الأتربة في الهواء لا يمكن تجاهله، مع توقع زخات مطر بين حين وآخر تنقي الهواء وتنشر رائحة الخصوبة بين البشر والحيوانات والنباتات.

أيام الامتحانات أقبلت، ومخلوف يفاجئني، ويطلب مني تحديد موعدٍ لمقابلة أبي. يا لها من مفاجأة سعيدة لي ولأبي ولأمي أيضًا؟

رحب أبي، ووعد بإعداد وليمة مثل وليمة محمود، ليظهر له كم نحن مهتمون به، وكرماء، ولنا بين الناس مكانٌ ومكانة.

قال مخلوف:

- سأزوركم وحدي أولًا. وبعدها ستزورون أسرتي في القرية.

قلت له، وكأني لا أعرف رد أبي:

- سأخبر والدي بما تريد، وسأجيبك بما يقول.

بالطبع لم أتطرق إلى قصة خطوبتي لمحمود، ولا ما انتهت إليه. ولا أدري هل علم بها أم لا؟ ربما أبلغه أحد من الطلاب أو غيره. لا أعلم. فضلت أن أصمت على أساس أن المسألة غير مهمة، وأنه إن علم بها فلن تغيِّر موقفه. إن الرجال يتزوجون مطلقاتٍ وأرامل. فالخطوبة السابقة لا تؤثر كثيرًا في خطوبةٍ جديدة. وإن كان بعض الناس يترددون في اختيار مخطوبةٍ سابقة، ولا يأبهون بالمُسَوِّغات أو الأسباب التي تلقي على الخاطب مسئولية الانفصال.

كان الدكتور رمضان عبده قد أخذ في البناء على محاضرات الدكتور سعيد محفوظ، بإضافة بعض الموضوعات المتعلقة بالمادة، ووعد أن الامتحان سيكون شاملًا لما شرحه الدكتور سعيد وما أضافه هو.

الدكتور رمضان أكبر سنا من الدكتور سعيد، وهو معتدل في علاقاته بالآخرين، وخاصة الطلاب، ويبدو أقرب إلى البساطة والطيبة الريفية التي تذكرني بمحمود. ولكنه لم يدرِّس لي من قبل. قيل إنه كان مُعارًا إلى بلدٍ عربي يعتمد الفرنسية في كثير من

مناهجه، ويبدو أنه قضى سنوات عديدة هناك.

سألته بعد المحاضرة:

- كيف سيكون شكل الامتحان؟

رد بشيء من الجفاف:

- مثل بقية الامتحانات.

أحسست بنوع من الإحباط. فقد كنت أريد أن أرتب لإجابة مناسبة على الأسئلة، التي تختلف من طريقة امتحان لآخر. هناك أسئلةٌ مقالية، وأخري استنتاجية، وثالثةٌ تعتمد على الصواب والخطأ، وغير ذلك من طرائق، كل منها يفترض أن تجمع له المعلومات بطريقة تختلف عن الأخرى كما أتصور، وإن كان هناك من يقول إن من يفهم المادة يستطيع الإجابة على أية أسئلة وبأية صورة.

لمحت طيف محمود يمضي في آخر الطرقة التي كنت أقف فيها متجها إليَّ، كان يبدو في صورة أفضل نسبيًا من آخر مرة رأيته فيها. لم تواتني القدرة على مواجهته، فسارعت إلى الهبوط إلى الدور الأرضي من سلم جانبي كي لا تلتقي العيون!

واضح أنه بدأ يسترد قواه بعض الشيء، وأن آثار الجراحة، أخذت في التلاشي رويدًا، ونبت أملٌ جديد على جبينه يبشر بعودته إلى سابق عهده بالشباب والفتوة، ولكن الأمر سيستغرق وقتًا ليس قصيرًا، على الأقل سنتين أو ثلاثًا، أكون في خلالها قد تزوجت وأنجبت وصرت مدرسًا مساعدًا بالكلية. هو النصيب كما يقولون يا محمود، أيها الطيب الأقرب إلى السذاجة الريفية، وأنا بنت المدينة، إياكم أن تقولوا بنت العشوائيات، فقد تلقنت منهج الحياة العملية، التي تقوم على الحساب المحض. خذ وهات. ١+١=٢، أما العواطف والمشاعر وخفقان القلب واهتزاز الوجدان، فلا محل لها في أجندتي، أو أجندة أبي بمعنى أدق.

سألته مرة:

- عندما ترى فقيرًا. هل تساعده؟
- عليه أن يساعد نفسه.
- إذا لم يستطع؟
- يتحمل نتيجة تقصيره.

- ولكن القرآن كما سمعت من الدكتور عمارة؛ يتحدث عن حق الفقير والمسكين في أموال الأغنياء. ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾.

- أنا رجل واقعي. لو فتحت يدي للسائل والمحروم لن يبقى في جيبي مليم واحد.

تبسمت، وقلت له:

- لا يوجد في أيامنا مليم، ولا قرش، حتى الجنيه الذي كانوا يسمونه ملطوشًا، لم تعد له قيمة، ولا يساوي إلا ثمن مصاصة للأطفال، أو كيس شيبسي.

وأردفت:

- الرحمة بالفقراء والضعفاء مطلوبة، بل حق واجب في أموال الأغنياء ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾، وهناك حديث معناه: «ما نقص مال من صدقة».

ثم تجرأت وسألته:

- هل تدفع زكاة المال يا أبي؟

نظر إليَّ في ذهول، وكأني فعلت شيئًا إدًّا.

- أي زكاة؟ وأدفعها لمن؟ ولماذا؟

إلى هذا الحد وصل فهمه للدين؟ لا يصلِّي ولا يفكر في الحج، ويقلِّد الناس في الصيام، لأن أحدًا لم يعلمه الدين، أو لأن أباه انشغل عنه، أوترك له مبادرة البحث عن مستقبله المادي، فسافر وعاد وبنى بيتًا وتاجر في الأعلاف وغيرها، ووفر أموالًا وركب سيارةً، وجلس مع تجار الحي، وصار معروفًا لدى أهل المنطقة وخارجها. ولكنه لا يدفع الزكاة، ولا يعرف ما هي. أو كأنه يعرف، ويتجاهل المعرفة كي لا يؤدي أحد أركان الإسلام الخمسة. وإذا سمع الولد «بِلْية» يسبُّ الدين جرى وراءه وتوعده بالعقاب ليعلمه كيف يحترم الدين. تناقضات لم أفهمها من أبي. المؤكد كما فهمت من إجابته أنه لا يدفع الزكاة. سمعت الدكتور عمارة يقرأ في بعض المناسبات قوله تعالى في سورة المعارج التي حفظت بعضًا منها في الكُتَّاب وأنا في المرحلة الابتدائية:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾.

وأبي لا يصلي!

العواطفُ جميلةٌ، والمشاعرُ رقيقةٌ، بيد أنها لا تطعم من جوعٍ ولا تؤمن من خوف في مجتمع لا يؤمن إلا بالقرش، أي الجنيه بلغة العصر، أي الباكو بلغة السوق، أي الأرنب بلغة الحيتان، وأبي ضمن هذا المجتمع الذي يبحث عن العملة في أية صورة، ولا يبالي بمحمود ولا يقدر شهامته ومروءته ونخوته حين أصرَّ أن يتبرع لأبيه بفص الكبد، وهو يعلم أن العجوز لا مستقبل له، والمستقبل للشباب من أمثاله.

لماذا غيَّرتُ طريقي كي لا أقابله في الطرقة التي ظهر على طرفها البعيد؟ هل هو شعور بالذنب تجاهلته وتغاضيت عنه حين أعدت إليه شبكته وهداياه، وفسخت الخطبة، وكأني أقول له: «إنك ميتٌ، ولا أحد يتزوج الموتى؟». لا أدري ما الذي كان يعتمل في داخلي وأنا أطعنه بسكينٍ حادةٍ؛ لدرجة أني لم أبد له أي تعاطف وأنا أتركه بخطوات باردة، وأنطلق دون أن أرفق بجراحته الجسمية، ولا جروحه العاطفية؟ وهأنذا أنتظر زيارة مخلوف ليخطبني ويتزوجني، وأواصل حياتي بعيدًا عن آلام محمود وجراحه.

عجيب أمر الحياة حين نتعامل معها من منظور المصلحة

الشخصية، لا الرؤية الإنسانية. نتصور أن حرصنا البالغ على أن نكون الطرف الرابح دائما هو الطريق الأصح في معايشة الواقع، ولكن قد تأتي الرياح بما لا يشتهي السفِن، وتكون النتائج على عكس كل التوقعات.

زارنا مخلوف، والتقى بأبي، وبعد تناول الطعام الدسم، جلسنا نتحدث حول الخطوبة والاستعداد لها. قال أبي كمن يداري عيبًا لا يريد لأحد أن يعلمه:

- أفضل أن تكون الخطوبة محدودة، وقاصرة على الأسرتين وحدهما.

- لماذا يا عم؟ نريد أن نفرح، ويفرح الجيران والأصدقاء والزملاء.

- فلندخر ذلك للزفاف، وأعدك أن يكون غيرَ مسبوقٍ في المنطقة.

استغرب مخلوف موقف أبي. ورنَّت في ذهنه كلمة «المنطقة»! وقال له: «أنت توفر عليَّ نفقات الحفل. على العموم شكرًا لك». وبدا كمن ينصاع لإرادةٍ قاهرةٍ، فقد كان يتوقع أن يطلب والدي

حفلًا موسعًا، ولكنه لا يعلم أنني أقمت حفلًا من قبل لم يكلل بالزفاف. وساورني نوعٌ من القلق، هل أخبره بما كان من خطوبةٍ سابقةٍ تم فسخها، أو ألزم الصمت حتي يعلم هو عن طريقٍ آخر؟

كان علينا أن نحدد موعدًا لزيارة أسرته في الشرقية، بعد أن يذهب إلى قريته ويخبرهم بما رأى عندنا، ويتفق معهم على الإعداد لزيارتنا، ثم يعود لنذهب معه.

بقي نحو أسبوعين على الامتحانات، وأنا مشغولة بحلم الأولوية والوصول إلى وظيفة معيدة تمهيدًا للمستقبل المأمول.

في المحاضرات الأخيرة يخبرنا الأساتذة أو بعضهم بما يمكن حذفه من المقرر والتركيز على موضوعات بعينها من أجل الامتحان. وقد يختزل بعضهم المقرر في مجموعة من الأسئلة تكون الإجابة على بعضها هي الامتحان القادم. أما الدكتورة (ف) فتختصر الأمر كله في سؤالين، أحدهما هو الامتحان..!

لاريب أني أجدت من السنة الأولى الإفادة مما يقوله الأساتذة في محاضرات آخر الفصل الجامعي أو الدراسي، وهيأت بطريقتي الخاصة أساليب الإجابة التي بمقتضاها أحصل على الدرجات

النهائية أو شبه النهائية. هناك مواد أحصل على ٢٠ درجة من ٢٠، أو ١٨، أو ١٩ من ٢٠. وكلها تقع في دائرة الامتياز، ولا ينالها إلا واحدٌ في الدفعة كلها، وعادة يكون هذا الواحد هو أنا. بقية الطلاب المجتهدين تتراوح درجاتهم بين ١٤ درجة أو ١٧، أما أنا فأفوز بالدرجات العلى.

ذهبت إلى الدكتور مختار لأساله عن بعض النقاط في المقرر. فوجدته غير مرحب بالكلام، وقال لي فيما يشبه عدم الرغبة في الإجابة:

- فيما بعد يا شهيرة!

- أريد الاستفسار عن نقطةٍ واحدة.

قال ممتعضًا:

- اسألي.

وانصرفت من مكتبه، والتقيت بمخلوف في الحديقة، حيث أخبرني بأنه عائد للتو من قريته، وأن أهله رحبوا بالخطوبة، وعلى استعداد لاستقبالنا بعد أيام.

كان نبأ سارا فرحت له، وزغرد قلبي.



جهَّز أبي سيارته الخاصة التي اشتراها مستعملة، وسيارة أخري يملكها خالي، في الأولى ركبت مع أبي وأمي وإخوتي، وفي الثانية خالي وزوجته وأختها وأولادهما. قطعنا الطريق إلى الشرقية. الأرض الزراعية الخضراء الممتدة التي كنت أحب مشاهدتها ونحن في طريقنا إلى الإسكندرية، لم يعد لها وجود. هناك ما يشبه البقع الخضراء تحجبها أو تغزوها المباني الخرسانية الكالحة. الأرض الزراعية الممتازة تتلاشى أو تموت ببطء لحساب العشوائيات القبيحة التي لا تعترف بالقانون ولا تشعر بالجمال ولا تؤمن بالتخطيط العقلي. نحن أيضًا نسكن في منطقةٍ عشوائيةٍ كانت أرضًا زراعية! لماذا لم يوجهوا العشوائيات إلى سيناء أو الصحراوات الشرقية والغربية بدلًا من الأراضي الزراعية التي تعد من أجود الأراضي؟ مجرد سؤال، فأنا لا أفهم في السياسة ولا الزراعة ولا الإسكان.

تعجبت أمي وهي تنظر خارج السيارة مشيرة بسبابتها:

- انظري يا شهيرة.

ثم قالت وكأنها لا تصدق:

- يقيمون بيوتًا على حافة الترعة، ويصرفون فضلاتهم في مياه الشرب؟

- كيف يا أمي؟

- بيوت متراصة وممتدة بطول كيلومترات، من دورين أو ثلاثة، ومواسير الصرف وخزاناته تمتد إلى الماء الذي يشربون منه!

أشعل أبي سيجارة، وهو يقود سيارته، وقال كأنه يقرر أمرًا واقعًا:

- لا تشغلوا بالكم. كل واحد يصنع ما يريد.

قلتُ بحماسة:

- أين الحكومة والمحافظة ومجلس المدينة، ومجلس القرية، أين ذهبوا؟

رد أبي ساخرًا:

- طلعوا رحلة مدرسية!

تذكرت مرض محمود. بالأحرى والد محمود الذي أصيب بتليف الكبد، وأوشك على الموت. لا بد أنه شرب من مثل هذه المياه الملوثة بالصرف الصحي والكيماويات التي تتسبب في سرطانات الجسم المتنوعة. إصابات الكلى بلا حدود، ومراكز الغسيل لا تستوعب أعداد المرضى الغفيرة كما قالت لي زميلة يُعالج أبوها من الفشل الكلوي، المبتلون بأمراض الكبد بغير حصر، بالإضافة لمرضى القولون والبنكرياس والمعدة كما تشير نشرات التلفزيون، وهي متاعبٌ لا تنتهي.

في الطريق الضيِّق المليء بالحفر والمطبات يبني الناس بيوتهم على حافته، ويمدون سلالم خرسانية تحتك بها السيارات المارة، مع أن الطريق كما سمعت من بعض أساتذتي له حرم، أي مسافة كبيرة تفصل بينه وبين المباني المقامة بالقرب منه. لابد أنهم مطمئنون إلى أن أحدا لن يسائل معتديًا على النيل أو الطريق العام. يقول لنا الدكتور مختار: «إنهم في الغرب يحترمون القانون ولا يعتدون على الملكية العامة تحت أية ذريعة».

قال أبي:

- استعدوا اقتربنا من القرية.

ثم استخدم هاتفه الجوال، وتكلم مع مخلوف، الذي وصف له المكان بدقة، فعبر بعض الشوارع، وتوقف أمام أحد البيوت حيث كان مخلوف ينتظر. البيت من عدة طبقات، وتظهر من ورائه حديقة فيها أشجار خضراء مرتفعة، ويبدو متميزًا عن بقية بيوت القرية، ويشعر من ينظر إليه أن أصحابه في نعمةٍ ورخاء، وهو ما جعلني أحس بالسعادة، والمستقبل الوردي. لا أدري أهو إحساس سليم أم حلم وخيال؟

الفلاحون بسطاء. أسرة مخلوف بسيطة، وإن كانت لا تمارس الفلاحة، أبوه صاحب وظيفةٍ مرموقةٍ كبيرة، وهو رجل مهذب، ومؤدب، ويتمسك مع أهل بيته باللهجة القروية التي لا يتخلى عنها في أي مكان يذهب إليه داخل البلاد أو خارجها، وهو حريص على الإقامة في قريته مهما اقتضته ظروف العمل أن يكون بعيدًا عنها. الذي حيرني أنني سمعت من بعض زملائي أن الفلاحين خبثاء، قال أحدهم: إن الفلاح الذي يستثير مشاعر العطف والرثاء

أحيانا، «يذهب بك إلى النهر ويعيدك عطشانًا!».

قال له آخر:

- الفلاح مسكين، لا الحكومة ترحمه ولا أصحاب الأرض يرفقون به، ولا السوق يُنصفه!

رد الأول:

- حقًا. تاريخ الفلاحين من أيام الفراعنة مليءٌ بالبؤس، ولكنه أورثهم الشك والارتياب وعدم التصديق. يبدو أحدهم طيبًا مستسلمًا، ولكن داخله يفكر في كيفية التمرد والانقضاض بطريقةٍ ملتوية!

- الفلاح مظلومٌ دائمًا!

- هذا حكم عام. هناك مظلومٌ، وهناك ظالمٌ أيضًا، يأخذ أكثر من حقه ويدَّعي أنه مغبون!

- الاستبداد صنع من الشعب على مدى التاريخ عبوديةً لا مثيل لها في العالم!

تدخلت في الحوار مع أني لم أعش بين الفلاحين:

- ولكنهم لا يغدرون.

قال زميلٌ يبدو أنه من أعماق الريف:

- على الأقل يملكون الحياء!

قلت له:

- ماذا تقصد؟

رد بهدوء:

- نعيش في عصر البجاحة. والعثور على شخصٍ يملك الحياء دليل على أن الدنيا بخير.

أمَّن زميلنا المتحامل على الفلاحين على كلام زميله، قائلًا:

- الحياء شطر الإيمان. يبدو أن الإيمان مفقود أيضًا.

انتبهت على صوت مخلوف، وهو يرحب بنا. ويتجه نحو غرفة الاستقبال. كان والده وأمه وبعض إخوته يرحبون بحرارة، ويقودون الضيوف إلى مقاعدهم.

قال لي مخلوف:

- لنترك القوم يتعارفون، وتعالي لتشاهدي الحديقة والبيت، وعش المستقبل.

عش المستقبل. ما ذا يعني مخلوف؟ هل سأعيش هنا بين الفلاحين والمياه الملوثة؟ يبدو أن الحياة هنا ستكون صعبةً، ولا أدري ما رأي أبي؟ سألت نفسي: وهل الحياة عندنا في شبرا الخيمة تشبه الحياة في الشانزليزيه؟ كان مخلوف يشير إلى الأشجار الباسقة في الحديقة. هذه نخلة البلح الزغلول، هذه شجرة المانجو من أحسن الأنواع، وهذه شجرة الجوافة البناتي، هذه أشجار الليمون، وهذه... وهذه...

روائح الورد والياسمين تعبق في المكان، وتملأه أريجًا يشرح القلب ويطرب الوجدان ويسرُّ العين. وتعوضه عن الترعة المنكوبة بالمباني الحجرية القبيحة، والصرف الصحي في المياه العذبة.

شقق البيت واسعةٌ ومضيئةٌ تختلف عمَّا في بيتنا. بعض إخوته المتزوجين يعمرون بعض الطبقات بأولادهم، وهناك شقق خالية لمخلوف وآخرين. البيت مزود بالمياه والكهرباء والمطابخ والحمامات الحديثة، وتشطيبه يعد من أفضل التشطيبات في بيوت القرية.

قال مخلوف:

- تختارين أية شقة؟

باغتني السؤال، ولكني تداركت الأمر:

- دعنا أولًا نعلن الخطبة.

- ألم تعلن بعد؟

- بلى. ولكن الرسميات مهمة.

- لا بأس؛ لننتظر.

غشيته لحظة وجوم عابرة، حاول أن يتجاوزها. وقال:

- لنعد إلى القوم. إنهم ينتظروننا.

- نعم، غبنا عنهم طويلًا.

كانت النظرات تتفحصنا من كل الجهات، وكأنها تعبر عن استنكار مكتوم لانفرادنا وغيابنا معًا، مع أن مخلوف لم يحاول أن يلمسني. بل ولم يقل لي كلمة غزلٍ تشبع أنوثتي، ولكنهم ومعهم حق يؤمنون أنه ما اجتمع رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما.

قلت لأمي:

- الحديقة من أجمل الأماكن في البيت.

- حقًا؟

- لابد أن تشاهدوها، وتستمتعوا بها.

قالت أم مخلوف بأسلوبٍ حنون:

- هيا نتناول الطعام أولًا. ثم تشاهدون البيت والحديقة، والقرية والحقول إذا أحببتم.

ونهض الجمع واتجهوا نحو غرفةٍ واسعةٍ خاليةٍ من الأثاث. لم تكن هناك سفرةٌ بالمعني المعتاد في البيوت القاهرية لأن العدد كان كبيرًا وخاصة مع وجود الأطفال. كانت الغرفة مفروشة بالسجاد الفاخر، وعليها أكثر من طبلية توزعت عليها أطايب الطعام الريفي المطهو بطريقة جيدة. وقد أغدق علينا أهل مخلوف من الفواكه والمشروبات ما ملأ البطون حتى التخمة!

نظرت إلى وجه أمي فوجدته مشرقًا، وكذلك وجه زوجة خالي وأختها. بدت السعادة والرضا على وجوه الجميع. كان أبي مشغولًا بعلبة سجائره التي فرغت من كثرة التدخين، وملأت جو الغرفة برائحة الدخان الخبيثة، فأحضر له أحد الأطفال علبة

أخرى من السيارة التي يحتفظ فيها بعدد من العُلَب. إنه يضع حسابًا للظروف الصعبة التي لا يجد فيها محلات بيع السجائر أو الأنواع التي اعتاد تدخينها. يعتقد أن السيجارة هي الخل الوفي الذي ينسيه همومه مع أنها تحرق صدره، وتقلل ما في جيبه. إنه لا يدفع ثمن سيجارة واحدة لفقير!

قضينا وقتًا طويلًا في بيت مخلوف، وتطرق الحديث إلى الحياة في الأرياف، وما يميز الحياة في المدينة. قال والد مخلوف:

- مع أن لي سكنًا في القاهرة، فأنا لا أحب الحياة فيها.

قال أبي:

- الناس تسعى إلى الحياة فيها بكل السبل.

- طبيعتي تكره الزحام، وأخلاق الزحام.

كان الرجل يتكلم بهدوءٍ وثقةٍ، ورضا عن النفس. تمنيت لو أن أبي امتلك شيئًا منه، فهو يبدو متوترًا دائما من الداخل وقلقًا، ويريد أن يسابق الريح كي يصل إلى شيء مجهول.

أضاف والد مخلوف:

- عندما تضطرني الظروف للسفر إلى القاهرة، لا أقود سيارتي إليها. أركب المواصلات العامة، أو القطار إذا توفر.

- ولماذا لا تذهب بالسيارة؟

- إن البحث عن مكان لانتظار السيارة في الشوارع والميادين، يستغرق وقتًا وجهدًا بسبب الزحام الخانق. حتى في المواقف التي توفرها المحافظة تجد صعوبةً في العثور على مكان. بدون السيارة أحافظ على وقتي، وأركب المترو أو التاكسي لتسهيل غرضي من الرحلة.

كان المساء قد أعلن عن قدوم الغروب، وكان على الضيوف أن ينهضوا للعودة من حيث أتوا، واتفق الطرفان على ترك مسألة حفل الخطبة وتحضيرات الزواج لمخلوف بالتشاور مع أبي، على أن يكون ذلك عقب امتحانات الفصل الأخير.

♦ ♦ ♦


(١٢)

قابلني مخلوف بالكلية في اليوم التالي للزيارة كي يتشاور مع أبي حول المستقبل. في المساء اجتمعا، وتناولا الشاي وتحدثا طويلا. قلت لأبي:

- علام اتفقتما؟

- على الخير.

كان ردًا خاليًا من الحرارة. قلت بقلقٍ:

- هل حددتما موعدًا للشبكة؟

- بعد الامتحان مباشرة.

- والعفش؟

- حين نتفق على مكان الإقامة.

- ألم تتفقا؟

- كلا! إنه يريد العيش في قريته.

قلت في نفسي: «القرية لا بأس بها، على الأقل أفضل من

عشوائيات شبرا الخيمة». وسألته:

- ما رأيك؟

قال:

- أخبرته أن ابنتي لن تعيش بعيدًا عني!

- وهل أبدى استعدادًا؟

- واضح أنه لا يريد.

- ما الذي يمنعه؟

- قال: إن لدي السكن في قريتي، والزوجة تتبع زوجها حيث يقيم.

بدت نتائج هذا اللقاء غيرَ مريحةٍ لي، وقلت في نفسي؛ سأحاول أن أتكلم مع مخلوف، وأقنعه، وأفهم ما الذي يمنعه من العيش في القاهرة. لعله متأثر بأبيه في كراهية السكن في هذه المدينة الواسعة.

لماذا لا نوافق على الزواج في بيته، وبعد ذلك نتفاهم في الانتقال إلى القاهرة، وهو بحكم عمله سيحتاج إلى سكن فيها؟

لماذا يصر أبي على تنفيذ إرادته؟ ولا يبالي بالعواقب؟

سأحاول مع مخلوف، ولعل وعسى!

استمعت إلى محاضرة الدكتور رمضان عبده الأخيرة، أملانا عشرين سؤالًا للامتحان، وقلت له بوصفي من تحقق الامتياز دائمًا:

- ألا يمكن اختصار هذا العدد من الأسئلة؟

- كلا!

بدا صارمًا في رده، ولم يتزحزح عن موقفه، وأخبرنا إن طرح أسئلة للامتحان أسلوب خاطئ، وما كان ينبغي أن يمارسه، ولولا ظروف الدكتور سعيد محفوظ، ما وضع هذه الأسئلة. لقد وضعها حتى لا يدعي أحد أنه وضع أسئلة من خارج المقرر أو المحاضرات التي تم تدريسها. أقنعنا أن علينا أن نستوعب المادة -أية مادة- ولا نفكر في أية أسئلة. ومن يستوعب يمكنه أن يجيب على أي سؤال. لم أنبس ببنت شفة، وانتظرت المحاضرة التالية.

جاء مخلوف وتناقشنا فيما جرى بينه وبين أبي. قلت له:

- إنك تعمل في القاهرة وستحتاج إلى سكن فيها عاجلًا أو آجلًا.

- صحيح، ولكنني لا أحب أن يفرض عليَّ أحدٌ شروطًا غير مقبولة.

- ليست شروطًا ولكنها رغبة، على الأقل يكون أهلي مطمئنين عليَّ.

- هل نحن متوحشون، سنأكلك لحمًا وعظمًا؟

تبسمت في محاولة لتهدئة انفعاله:

- المسألة أن هذه أول مرة يزوج فيها بنتًا، ولم يتعود على فراقها.

قال بإصرار:

- أتعلمين أن أمي من محافظة أخرى اسمها دمياط؟ والمسافة بين قريتها وقريتنا أطول من المسافة بينها وبين القاهرة؟ لماذا لإصرار على موقف غير مفهوم؟

- هدئ من روعك. فالأمور ستمضي إلى الأحسن.

قال بتصميم:

- نعم!

وتركني ليتابع محاضراته، وأنا في حيرة بين موقفه الذي أميل إليه إلى حد ما، وإرادة أبي التي تبدو غير منطقية أحيانًا، لا أفهم مغزى إصراره على أن أبقى بجواره، وممَّ يخاف! ألم تكن أمي من الريف وجاءت من منطقةٍ بعيدةٍ عن المنطقة التي يعيش فيها، ولم يمانع أهلها في اقترانها به؟

أحوال غير مفهومة، وأنا تائهةٌ بين رغباتٍ متعارضةٍ أو متضاربة. الحق أني لا أفهم أبي، والشيء المؤكد هو أني أحبه وأخاف عليه، حتى لو تصرف بما لا يعجبني، أو يخالف رغبتي.

بقيت أيام على الامتحان، اتفقت مع مخلوف أن يتفاهم مع أبي مرة أخرى - ويمكنه إذا كان متمسِّكًا بي أن يوسِّط أحدًا من طرفه لإقناعه بحل المشكلة، ليتم الزواج، دون الحديث في أمر السكن.

- إذا لم أكن متمسكًا بك ما كنت صبرت حتى هذا الوقت!
- مزيدًا من الصبر والتفاهم.
- سأصبر، ولكن إلى حين!

وقبل أن يتركني أخبر بقدومه مساء الغد مع رجل يثق في

رجاحة عقله لإقناع أبي، ولعل وعسى تنفك العقدة!

قرب باب الكلية وأنا منصرفة إلى بيتي لمحت خطيبي السابق، يمضي على مهل في الفناء متجهًا إلى طريق الخروج. ما زالت آثار الجراحة بادية عليه، ولكنه أفضل من ذي قبل. تمهلت حتى لا يراني، لا أريد أن يتكلم معي فيشعرني بقسوة القلب التي عاملته بها، أو بالأحرى عامله بها أبي، وكنت قد علمت ممن يعرفونني ويعرفونه؛ أنه أوشك على مناقشة رسالة الماجستير، وينتظر منحةً من فرنسا كان يأمل بالحصول عليها عندما كنا مخطوبين. ويبدو أنهم في الطريق إلى الموافقة عليها بعد شهور، وقد عرفت أنه يتوقع أن تساعده المنحة على تلقي رعاية صحية أفضل في باريس أو المدينة التي سيذهب إليها، ويدرس في جامعتها.

محمود شخصيته قوية علميًا وجادٌ ولا يُضيِّعُ وقتا. يستغل لحظات الفراغ فيما يفيد مهنيًا وثقافيًا، ويتابع الجديد أولًا بأول في مجال الإعلام، وإذا جلس أمام الشاشة الفضية أو الإذاعة المسموعة أو الصحف اليومية، يكشف نقاط القوة والضعف فيما تقدمه، ويدوِّنها في مفكرته التي لا يتخلى عنها. ذات يوم كان يقرأ في

مكتبه بالكلية صحيفة يومية، فقال لي:

- اقرئي هذا الخبر.

وبعد القراءة سألته:

- ماذا فيه؟

قال:

- ألم تلاحظي أن المحرر ضعيف المستوى؟

قلت:

- كيف؟

- لم يذكر الزمان ولا المكان في الخبر، وهو ما يفقد الخبر قيمته.

قلت بشيء من عدم الاكتراث:

- أنا تخصص لغة فرنسية، وليس إعلامًا.

- يفترض أنك مستهلكة للخبر، وتفيدين منه أيًا كان تخصصك. فإذا لم تفيدي منه فالخبر لا قيمة له.

وهكذا كان اجتهاد محمود في مجال الإعلام، ناضجًا ومستمرًا، وهو ما أعجبني فيه. هل أشعر الآن بتأنيب الضمير لأني تركته؟ إنه بلا ريب أفضل من مخلوف من الناحية العلمية، وإن كانت شخصيته الطيبة تجعله في مستوى لا تفضله بنات اليوم اللاتي يبحثن عن الشاب القوي. وربما الشرس أحيانًا. المرأة لا تحب الطيب الهادئ، أو المسالم المفرط في حق نفسه. بالتأكيد هي تريد من يغازلها ويقول لها كلاما حلوا، ويحدثها حديثًا رقيقًا، ولكنها تريده حازمًا وحاسمًا حتى لو أبكاها أو أغضبها، بعد الغزل والرقة. وبوصفها الكائن الضعيف فهي تهفو إلى الكائن القوي الذي يشعرها في كل الأحوال بالحماية والرعاية والدفاع عنها إذا لزم الأمر.

مالي أقارن بين محمودٍ ومخلوف؟

هل هي الرغبة الدفينة في العودة إلى محمود، وتحقيق الحلم بالسفر إلى فرنسا، والعودة للعمل في الجامعة تحت لافتة أستاذٍ جامعي؟ لا أدري ماذا أريد تمامًا. إني أعيش ارتباكًا بين إرادة أبي ورغباتي، وتسيطر عليَّ أفكار رمادية يصعب الإمساك بها تمامًا. لمَ لمْ أصبر قليلًا حتى يتحسن محمود بعد الجراحة؟ إنه الآن

يستعيد صورته الأولى بالتدريج، وبلا ريب سيتعافى تمامًا لو سافر إلى فرنسا في الشهور القليلة القادمة، ومن يعرفونني ويعرفونه، يقولون: إن والده قام من الرقاد وصار حيًا يمشي بين الناس. صحيح أن للجراحة تأثيرًا عليه، وأنه يتابع العلاج بالأدوية، ولكن الفارق بين ما كان عليه يوم دخل حجرة العمليات وبين ما انتهى إليه الآن كبير جدًا. من المؤكد أنني من الخاسرين بفسخ الخطبة، حتى لو بدا أنني عثرت على خطيب آخر أكثرَ غنًى من محمود. ماذا أفعل يا ربي؟

في البيت قلت لأبي:

- مخلوف سيحضر مساءَ غد.

- ماذا يريد؟

- سيكون معه بعض معارفه من أجل التفاهم.

- لقد أوضحت له الأمر.

- وهو متمسك برأيه.

- هو حر. غيره أحسن منه!

- كيف يا أبي؟

- كلامي واضح؟

- لعلكم في اللقاء تجدون حلًا.

- إنه يعمل هنا، ولا بد أن يقيم هنا.

- ولماذا لانقبل الآن ونترك المسألة للمستقبل، وسينتقل تلقائيًا؟

بدا متوترًا، وغير راغب في الحديث:

- هل تفضلينه على أبيك؟

- أستغفر الله. أنت حياتي.

- أراك متلهفة عليه، مستجيبة لآرائه؟

- نحن نتناقش.

- سنرى عندما نلتقي.

♦ ♦ ♦

١٣

حرارة الجو تبسط وجودها على البشر والكائنات والأشجار والمباني. وتبشِّر بصيفٍ قائظ، فالربيع في أواخر أيامه المحملة بالرياح الساخنة المتربة، وفناء الكلية يجمع الطلاب القلائل تحت الأشجار الباسقة هربًا من لهيب الشمس الشاردة كما يسمونها في المناطق.

الامتحانات أوشكت، والطلاب الموجودون في فناء الكلية ويجلسون على المقاعد الحجرية أو الخشبية، جاءوا لمعرفة الجداول أو المواد وترتيبها، وأماكن اللجان. ومنهم من جاء ليستكمل بعض المحاضرات من زملائه، أو ينقل أسئلة أو موضوعات فاتت. ومنهم من يحاول استدراج الأساتذة ليعرف مواضع أسئلة الامتحانات المتوقعة، وكنت من بينهم. هناك من الأساتذة من يدرك حيل الطلاب، فيقطع عليهم الطريق، ولا يمكنهم من معرفة أي شيء عن الامتحان أو طريقته، ومنهم الدكتور عمارة، الذي قال لي عندما سألته عن طبيعة الامتحان:

- اسمعي يا ابنتي. الأستاذ مثل القاضي، يجب أن يحكم بالعدل.

- وهل في الإجابة على أسئلة الطلاب ظلم؟

ابتسم مستغربًا من سؤالي، وقال بروح الأب الحاني:

- الإجابة على سؤال في المقرر حلال، ولكن الإجابة عن مواضع الامتحان حرام. حين أقول لك إن الامتحان في النقطة الفلانية، فهذا تسريب للامتحان وظلم لزملائك وزميلاتك الذين يجهلون أن الامتحان في هذه النقطة. العدل يقتضي ألا يعلم الطلاب جميعًا بمواضع الامتحان. إذا علم بعضهم به، فهذا يعني أننا فضلنا بعض الطلاب على بعض.

واستطرد:

- تسريب الامتحان لبعض الطلاب غش يرفضه الدين والقانون. صحيحٌ أن المجتمع صار يتعايش مع الغش، ولكن نتائج الغش تدمر المجتمع وتهوي به إلى قرارٍ سحيق.

لم أفهم ما يقصد بالضبط، فسألته:

- كيف يدمر الغشُّ المجتمع؟

- حين ينجح الطبيب والمهندس والمعلم والإعلامي الصحفي والموظف، وغيرهم بالغش، فهذا معناه أن المجتمع سيدفع ثمن الغش غاليًا. لأنهم يغشون المجتمع.

ثم انفعل وهو يقول:

- تصوري لو أنك عالجت مريضًا عزيزًا عليك لدى طبيبٍ غشَّاش، ومات المريض. هل توافقين على الغش؟ لو سكنت في منزل بناه مهندس يغش في مواد البناء، وخر سقف هذا البناء على رءوس السكان، فهل هذا يجعلنا نوافق على الغش؟... الأمثلة كثيرة.

تشجعت وقلت له:

- المسألة يا دكتور تتعلق بإجابة الطالب. لو لم يكن ملمًا بالمادة ما استطاع أن يجيب إجابة سليمة بالغش.

- كلامك جيد، فالغشاشون كما أرى في كثير من إجاباتهم لا يعرفون كيف يجيبون إجابة صحيحة.

قلت له بثقة:

- هناك من يغشون ولا يراهم أحد.

- هذا صحيح، ولكن دعيني أقل لك: إن الغش خيانة لله ورسوله. قد يتصور الغشاش المحترف أن أحدًا لا يراه، ولكن الله يراه، ولن يبارك له في عمله وحياته. ولا بد أن يأتي يوم يسقط فيه في قبضة القانون.

شعرت بقلبي يخفق فزعًا من هذه النهاية التي يصورها الدكتور عمارة للغشاشين. ولا أعرف لماذا؟ هناك من لا يؤمنون بالله ولا بالعدالة الإلهية، ويفعلون ما يريدون دون أن يوخزهم ضمير، أو يخيفهم قانون.

قلت للدكتور عمارة وكأني أؤكد حقيقةً علمية:

- هناك غشاشون لا يحدث لهم شيء، لأنهم ببساطة لا يؤمنون بدينٍ ولا قانون.

- يمكن أن يحدث هذا. ويمكن أن يتأخر العقاب الإلهي أو الاجتماعي بعض الوقت. ولكنه لا يتأخر إلى الأبد.

ثم رجع برأسه إلى الوراء، ووضع يده على رأسه، وأنزلها وأشار بها إليَّ:

- سأذكر لك بيتين كان ينشدهما أحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

إذا ما خلوت الدهر يوما

فلا تقل خلوت ولكن قل عليَّ رقيبُ

ولا تحسبن الله يغفل ساعة

ولا أن ما يخفى عليه يغيبُ

وسألني في اهتمام واضح:

- هل تؤمنين برقابة الله؟ القرآن الكريم يؤكد على ذلك في أكثر من سورة. يقول تعالى في سورة طه: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾، ويقول في سورة ق: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾.

واستكمل محاضرته العفوية التي استمعت إليها وحدي، وقد هزَّتني من الأعماق، وقلبت كياني لسبب لا أدريه تمامًا:

- الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يحثنا على رفض الغش في أية صورة. وقال: «من غشَّ فليس منا». أي أخرج الغشاش من دائرة المجتمع، ولعلك تتذكرين قصة عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، حين سمع امرأةً وابنتها تتجادلان حول غشِّ اللبن، حيث قالت الأم لابنتها: إن عمر لا يرانا، فقالت الابنة: إن رب عمر يرانا! ولهذا اختار عمر هذه الابنة زوجًا لابنه عاصم، وكان من نسلها عمر بن عبد العزيز

الذي يعدُّونه الخليفة الراشد الخامس!

الدكتور عمارة فائق الثقافة الإسلامية مثلما هو فائق في الثقافة الغربية، ويعدُّ نموذجًا فذًّا في أخلاقه الرفيعة وسلوكه الإنساني، إنه زاهدٌ في المناصب والمغانم التي يتقاتل عليها ضعفاءُ النفوس، أدعياءُ المعرفة والثقافة، ولذا يهابه جميع من في الكلية أساتذة وطلابًا، ويقدرونه ويحترمونه، وإن كان بعضهم ينفث عليه هذه النعمة، ولا يكف عن حسده بل الحقد عليه، ولكنه لا يأبه لذلك، ولا يلقي بالًا لما يقولون أو يفعلون.

تركته ولولا خوفي من تعطيله عن عمله لجلست أستمع إلى المزيد. رحت أدور بين غرفات الأساتذة لعلي أجد من يزودني بشيءٍ مفيدٍ في الامتحانات. لمحت الدكتور مختار من بعيد. بدا متجهمًا عندما اقتربت منه ويفترض أن يكون مبتهجًا. كان الطلاب قد عرفوا أن الحكومة عينته في منصب مرموقٍ بوزارة الثقافة مكافأةً له على وقوفه إلى جانب الوزارة في بعض المواقف الشائكة. قال المقربون منه إنه سيتقاضى مكافأة مالية كبيرة كل شهر، عدا الامتيازات المعنوية والمادية التي ستنهمر عليه بعد

تقلد منصبه الجديد، وسيكون لدية الفرصة لينشر فكره التنويري، أو بالحري فكره الغربي الذي يؤسس للتبعية الغربية وسلخ الثقافة الإسلامية من ثقافة البلاد، ليبقى التنوير الذي يدعو إليه سيِّدُ الساحة.

قال له أحد الطلاب مرة في أسلوب ريفي ساذج:

- إنك تدعونا للتنوير يا دكتور، ونحن عندنا النور كله.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن الله سبحانه منحنا النور الذي هو أعم من التنوير. ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾.

بدا متململًا وهو يستمع إلى الطالب الريفي، وكأنه لا يصدق أن يجبهه بمثل هذا الحديث:

- هل تفهم معنى التنوير يا بني؟

- أريد أن أفهم.

- التنوير هو الإيمان بالعلم والمعرفة والثقافة.

- وهل أمر ديننا بغير ذلك؟

- التنوير هو أساس الحضارة الغربية وتقدمها المذهل.

- في حدود علمي المتواضع يا دكتور أن التنوير، هو الإيمان بالمحسوس والتجربة، ورفض الإيمان بالغيب أو ما وراء الواقع، أي رفض الوحي، وهذا يتعا رض مع ديننا الحنيف.

- العلم يا بني لا شأن له بالدين.

- وهل يمنع أن أكون عالمًا كبيرًا ومؤمنًا بالله في الوقت نفسه؟

- لقد نجح الغربُ لأنه فصل بين الدين والحياة بصفةٍ عامة.

- ولكن القرآن الكريم يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

- هذا شأنُك.

- تاريخنا العظيم يضم علماء أفذاذا كانوا مؤمنين، ويقيمون الصلاة، ويلتزمون بأحكام الإسلام. منهم ابن سينا وابن الهيثم، والرازي، وابن حيان وابن رشد الذي يتحدث عنه العلمانيون باستمرار. هؤلاء وغيرهم وضعوا أسس الحضارة الحديثة العلمية

وكانوا يعتزون بدينهم ولم يفصلوا بينه وبين تخصصاتهم. بل كان دافعًا لهم لمزيد من الاجتهاد العلمي والمعرفي.

انبهر الطلاب بالزميل الريفي، وقدرته على مواجهة أفكار الدكتور مختار بالشواهد الدينية التاريخية، وتساءلوا كيف له بهذه الثقافة التي واجه بها أستاذه، من أين واتته الجرأة ليعلن هذه الآراء؟ لم يكن معروفًا عنه هذه المقدرة الفكرية. كما لم يكن يناقش في المحاضرات، أو يسأل. يكتفي بالاستماع والمتابعة، وفاجأ الزملاء بحديثه الثري الذي حاور به الدكتور مختار، وجعله يشعر بالانزعاج والقلق.

قال بعض الزملاء عقب حوار الدكتور مختار إن زميلهم قارئٌ نهمٌ، ومثقفٌ جيدٌ، يقرأ الكتب المختلفة، ويقضي وقته بصحبتها دون مللٍ، ويستعير من مكتبة الكلية ما يستطيع من كتبٍ تتاح له، ويشتري منها بما يقدر عليه ماديًا. وربما كان هذا من وراء تقديراته التي لا تصل إلى الامتياز، فانشغاله بالقراءة يقلِّل من جهد المذاكرة لمواد الكلية. وتتراوح التقديرات بين جيدٍ وجيدٍ جدًا. لذا فهو لا ينافسني على الأولوية مثل عددٍ آخرَ يحرزون تقديراتٍ مثل تقديراته.

حين واجهت الدكتور مختار لم أستطع أن أسأله عن الامتحانات، ولكني قلت له:

- مبارك يا دكتور؟

نظر إلى مستفهمًا، فقلت:

- المنصب الجديد بوزارة الثقافة.

كانت الدكتورة (ف) قد أقبلت تحييه، فقال:

- باركي للدكتورة، ستعمل مستشارة لي وتشاركني المنصب.

قلت لها:

- مبارك عليك.

شكرتني الدكتورة، وانصرفا معا، وتركاني أفكر في العودة إلى البيت تحت الهجير الذي صنعته عواصف الربيع اللافحة، وأنتظر اللقاء الذي يضم أبي مع ضيفيه لحل موضوع السكن الذي يهدد خطبتي وزواجي من مخلوف.



١٤

أقبل مخلوف في المساء، ومعه رجل خمسيني العمر، يشرق وجهه بالصلاح والتقوى، والطيبة والهدوء. يبدو قليل الكلام. استقبلهما أبي ورحب بهما، وتناقشوا في الموضوع. قال الرجل:

- نسأل الله أن يوفق الطرفين، ويتم الزواجُ على خير.

لم يعلق أبي، وانشغل بالتخلص من رماد سيجارته.

قال الرجل:

- أظن أن الزواج يقوم على الثقة المتبادلة. وأنتم تثقون في مخلوف.

قال أبي:

- نعم. نثق به.

- إذًا ما المشكلة في أن يتزوج في بلده؟

- لا مشكلة. ولكني أريد ابنتي بجواري.

- حتى لو كانت بجوارك فواجبها أن ترعى الرجل الآخر،

الذي هو زوجها. أليس كذلك؟

- ولكنها ستكون قريبةً منِّي. أراها في أية لحظة.

- إذا كانت متمسكة بخطيبها فستذهب معه في كل مكانٍ يعيش فيه ولو كان خارج الدولة.

وسكت الرجل لحظة، ثم قال:

- ومن يدري، فقد ينتقل برغبته فيما بعد إلى القاهرة.

وأضاف:

- وصدقني فإني شخصيًا أتمنَّى لو عشت بعيدًا عن القاهرة في المدن الجديدة الخالية من الزحامِ، والتلوثِ، والعشوائيات.

رد أبي بكلامٍ قاطع:

- لن أزوج ابنتي خارج القاهرة.

وبعد برهة:

- إذا لم يكن يستطيع أن يدبر سكنًا في القاهرة، فإنِّي على استعداد لمساعدته بأي مبلغ يطلبه، على أن يكتب لي وصل أمانة بما أعطيه له.

تغيَّر وجهُ الرجل، وجرت فيه دماء الانفعال، وأشار إلى مخلوف:

- إذًا القرار لصاحب الشأن.

فقال مخلوف:

- بيتي موجود في القرية، ويمكن الاتصال بي إذا تغير الموقف!

وهبَّ واقفًا، ونهض أبي، وظل الرجل الطيب جالسًا بعض الوقت لعله يوفق بينهما، ولكن الطرفين أصرَّا على موقفيهما. لم يجد الرجل بدا من النهوض والانسحاب مع مخلوف، ولا بد أنه وجد في إصرار أبي ذريعةً واهيةً لا تُسَوِّغ فك الارتباط بين شابٍّ وفتاةٍ يريد كل منهما الآخر، ولعله وجد في تفكير أبي حافزًا لمخلوف كي ينهي المسألة تمامًا، وأن التعامل معه لن يكون مريحًا. هكذا تصورت، وهو ما كشفت عنه كلماتٌ لمخلوف فيما بعد.

مع انصراف الرجل ومخلوف أحسستُ أنها النهاية. هل أبكي حظي النكِد أو أظل منساقةً وراء أبي حتى لا أجد خطيبًا يقبل بي؟ أعترف أن قلبي لم يخفق بما يسمونه الحبَّ لأحدهما:

محمود ومخلوف ولكن كانت لدي رغبةٌ أن أفوز بأحدهما زوجًا يوفر الوجاهة الاجتماعية أو الإشباع المادي. ربَّاني أبي أن أكون عملية، فالزواج والارتباط يعني مصلحةً يفيد منها الطرفان، بصورةٍ ما، وأعترف أن الشابين لم ينظرا إليَّ بالعاطفة أو حتى الاشتهاء الذي يميز الشبان في عمريهما. مع أنهما كانا يتوقان إلى الارتباط بي زوجةً صالحة، تحقق لهما السكينةَ والسلامَ النفسي. ولعلي أسهمت في ذلك بقدر كبير، فما كانت الأنوثة في دفتر علاقتي مع أيٍ منهما. كنت أتكلم معهما كأني شاب له شارب، وليس فتاة لها خصائص البنات. جاء انكسار محمود ليس من أجل حبه لي، بل من أجل كرامته وفجاجةِ موقفي، ورفض مخلوف كان بسبب إصرار أبي على فرض إرادته عليه، وإدخاله تحت الوصاية.

هذه المواقف المبدئية لها قيمتها المعنوية بلا ريب، وهو ما جعلني لا أشعر بحزن على فراقهما بقدر حزني على موقفي تجاه من حولي في الحارة والكلية والمجتمع. لا شيء يظل سرًا بين الناس، ومجتمعنا لا يخفي عليه سرٌ خاصة ما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية، وتجربة خِطبتي لمحمود تعلم بها زميلاتي وزملائي،

وعدد لا يستهان به من زملاء محمود وطلاب قسمه، وقطعًا سيتسرب خبر الإخفاق بيني وبين مخلوف، سوف يعلم زملاؤه وزميلاته، ويعلم آخرون في حارتنا فلا شيء يخفي على أهلها، وستكون السمعةُ غير جيدة، وستجعل من يفكر في التقدم إليَّ يفكر ألف مرة قبل أن ينطق بكلمة طلب اليد.

قلت لأبي:

- وصلنا إلى النهاية؟

- لا تهتمي.

- كيف لا أهتم؟

- الدنيا مليئة بشبان أفضل.

- حين يسمعون أن ابنتك خطبت مرتين ولم توفق. هل ستجد من يقبل عليك؟

- هل قصرت في حقك؟

- لا سمح الله.

- إذا كوني مطمئنة أني سأوفر كل ما تحتاجين إليه حتى

أموت.

- لا قدر الله.

- اهتمي بامتحانك، لتكوني الأولي.

وفي محاولة، لصرفي عن التفكير في الموضوع:

- لابد من الامتياز... يا دكتورة.

رحت أعد للامتحان، وانشغلت بالمواد وطرق الإجابة، ومرَّت بعض المواد طيبة هادئة، وثقتي لا حد لها في الحصول على أعلى الدرجات. فكرتُ ذات ليلةٍ في مخلوف، وطلبته بالهاتف وروائح الصيف المبكر تملأ الليل الساجي:

- لم أسمع صوتك منذ زيارتنا مع الرجل الطيب؟

- وهل هناك ما يجعلك تنتظرين صوتي؟

كان الرد صادمًا، ولا ينبئُ عن استعدادٍ لعودة العلاقة:

- الخلافات تحدث في كل البيوت.

- هذه ليست خلافات. إنها إرادة تفرض نفسها دون حقٍ.

- التفاهم كفيل بحل المعضلات.

- تفاهمنا. والرجل الذي كان معي لم يجد أدنى استجابة.

- كان ينبغي أن يبذل جهدًا أكبر.

- لقد وجد ازدراءً لجُهده. وكان عليه أن ينفض يده.

- إنه يبدو طيبًا.

- الطيبة لها حدود. ثم إنه كوَّن رأيًا لا أحب إعلانه.

- ما هو؟

- لا يجوز أن أتكلم عنه. المجالس أمانات.

فهمت ما قاله دون أن يفصح. ببساطة فالرجل رأى كما فهمت أننا قوم لا يصلحون للمصاهرة. وهذا من أقسى الأحكام التي صدرت بحقي وحق أسرتي، وسيزداد قسوة لو عرف مخلوف والرجل الطيب بفسخ الخطوبة مع محمود، والظروف التي تم فيها فك الارتباط.

هل أقول معه حق؟

لا أستطيع أن أقولها من أجل أبي.

قبيل انتهاء الامتحانات بمادتين، تقابلت مع محمود وجهًا لوجهٍ أمام لجنة الامتحان. حين رآني تجهم على الفور، ونظر إليَّ نظرةً ذات مغزى. ومضى في طريقه دون أن ينبس بكلمة. صار شخصًا آخر بلا ريب. زايلته أعراض الضعف والوهن التي لازمته فترةً طويلةً بعد الجراحة، صار أقوى، وتبدلت ملامحه لتعود إلى كثير من صفائها القديم. قامته مشدودة إلى أعلى، وخطواته ليست بطيئةً وليست سريعة، وقد عرفت أن الموافقة على المنحة التي طلبها قد تمت على أن تبدأ مع العام الدراسي الجديد في إحدى مدن فرنسا، وأنه سيناقش رسالته للماجستير في الصيف قبيل سفره. كما علمت أن أباه قد استرد عافيته، ويمارس نشاطه في الزراعة بشكل شبه عادي.

ما يميز الرجل وابنه أنهما يسيران في حياتهما سيرةً جادة، ولا يعلقان على ما كان منِّي، وقد حاولت أن أعرف رد فعل محمود على موضوع فسخ الخطبة من خلال أسئلةٍ غير مباشرةٍ للمقربين، فلم أظفر بكلمةٍ واحدة. لقد انتهى الأمر، وأُغلق إلى الأبد!

لم أر مخلوف بعد الليلة العاصفة، ولم يشده الحديث في الهاتف إلى إبداء أي رغبة في استعادة العلاقة، حتى لو أبدى أبي تنازلًا، ومما زاد الطين بلة أن أبي اتصل به ذات مساء، فأكد أن الأمور إلى قطيعةٍ بلا عودة. قال له:

- هل بنات الناس لعبة؟
- لم ألعب ببنات أحد.
- أنت لعبت ببنتي، ودخلت بيتي.
- وأنت دخلت بيتي، وكنا نسعى لاتفاق، ولكن الاتفاق لم يتم.
- كان يجب أن تجهز سكنًا في القاهرة.
- لم أعدك بذلك.
- أنت وعدت ابنتي.
- لم أعدها.
- هي أكدت ذلك.
- إنها كاذبة.
- أنت الكذاب. ابنتي لا تكذب.

- احترم نفسك ولا داعي للغلط.

وراح أبي يشتمه ويسبُّه ويقذع في الإساءة إليه، مما جعل الآخر يرد عليه بمثل ما قال، فلجأ أبي إلى التهديد والوعيد، فقابله بمثل تهديده ووعيده، وأغلق الهاتف في وجهه.

كانت ليلة ليلاء، أحرق فيها أبي كثيرًا من السجائر، وراح يعالج فشله الذريع بأفكار عبثية، لا محل لها، ولا تسمح لمخلوف بالتفكير في العودة، وإلا كان فاقدًا للكرامة. وأظنه كما عرفته واعتزازًا بكرامته لا يفكر فيَّ تحت أي ظرف. وليس أمامي سوى أن أندب حظي وأنتظر من يتقدم لي. وهل بعد ما جرى يمكن أن يتقدم لي أحد؟

من يتقدم لي سيطرح أسئلةً على أبي، إن لم يعلنها فهو يختزنها في داخله:

ما هي المعايير التي تختار بها عريسًا لابنتك؟

هل هي المعايير الخلقية أم المعايير المادية؟

وهل تتعامل مع زوج ابنتك بوصفك وصيًا عليه، وتتعامل معه بإيصالات الأمانة؟

هـل تشـترط العـريس اللقطـة الـذي يملـك مـالًا وجاهًـا ووظيفـة، وحبـذا لـو كانـت وظيفـة في هيئـة التـدريس بالجامعـة؟ أو رجلًا يملأ مركزه ويحترمه الناس لأخلاقه وسلوكه وشهامته؟

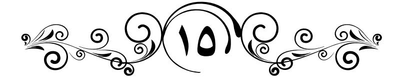
من يكون العريس الذي يملأ دماغك ؟

هل هو الذي يمشي وفقًا لإرادتك، ويجلس معك تتبادلان تدخينَ السجائر وتستنشقان روائحها الخبيثة، وتتحدثان في الأمور التافهة؟

أو هو الذي يأخذها إلى بيته ويعمل معها من أجل المستقبل بعيدًا عن الوصاية؟

لـم أعـد أدري! وحـين لا يخفـق قلبـي لأحـد، فـالأمر لـيس طبعيًـا بالتأكيـد، ولـن يـتم ارتبـاط أو زواج أو حيـاة زوجيـة تحمـل طعم الحياة.

♦ ♦ ♦



في المدرج العام بالكلية كانت لجنة امتحاني. المقاعد الخلفية مرتفعة تقترب من السقف، ولكن الشخص يقف بجوارها وبينه وبين السقف مسافة معقولة، وفي الجدار الخلفي باب واسع يدخل منه من كان في الطبقة الأعلى، مثلما يدخل من في الطبقة الأرضية من الباب الرئيسي في الأسفل. والمدرج مقسم إلى مقاعد ممتدة، كل قسم يفصل ينه وبين الآخر ممر به درجاتٌ هابطةٌ حتى أرض المدرج، وعليها الطاولة التي يجلس فوقها المحاضرون.

من يقف في أعلى المدرج يرى جميع من هم أمامه في الأسفل حتى الباب الرئيسي، ويعرف جيدًا ماذا يفعلون وكيف يتحركون.

رأت الكلية أن تضع طلابًا من عدة أقسام في المدرج الكبير، بحيث يتوزع طلاب كل قسم في ناحية من نواحي المدرج ويفصل بينهم الممرات، فتجد طلاب القسم (أ) مثلًا، على اليمين بعدهم طلاب القسم (ب)، وبعدهم طلاب القسم (جـ) ثم (د) في أقصى

اليسار. ويقف الملاحظون والملاحظات بالتباعد بين الممرات، ويأتي المراقبون ليتحركوا كما يشاءون لمتابعة الامتحان، وتلبية احتياجات الطلاب.

في المقعد الواحد يجلس أربع أو خمس طلاب أيام الامتحان، في المحاضرات العادية يسع المقعد عشر طلاب أو أكثر، والفكرة ألا يتمكن أحدٌ من الغشِّ.

كنت أجلس في النصف العلوي الأقرب إلى السقف والنافذة. انتهت معظم المواد نهاية طيبة، فقد أجبت إجابات تضمن لي الامتياز فيها جميعًا، وبقيت مادتان، إحداهما اليوم. قضيت الليلة الماضية أجهز للمادة الحالية. وقد استيقظت مع ابتهالات الفجر التي يذيعها أحد المساجد المجاورة لبيتنا قبيل الأذان، وقد شدني المبتهل بأبيات يرددها، حفظت منها قوله:

يا سيد الأبرار حبك في دمي
نهر على أرض الصبابة جارِ
يا من تركت لنا المحجة نبعها
نبع اليقين وليلها كنهارِ

لم أنتبه لمثل هذه الابتهالات أو الأشعار من قبل، ولكن شيئًا ما شدني إليها، ربما لأداء المبتهل الذي يسلم أمره كله لله، وربما لسلاسة الشعر ورقة كلماته وتدفقها في موسيقى شجية. إني لا أصلي ولا أفكر في الأمور الدينية كثيرًا، فما الذي يجعل لمثل هذا الشعر تأثير في وجداني الصخري الذي لا يستجيب لأي شيء غير مادي؟

خرجت في الصباح الرطب، الذي يسخن بالتدريج مع سطوع الشمس، ويتحول إلى نار ملتهبة مع الضحى، وتضيق الأنفس في الشوارع والمواصلات العامة، ويسيل العرق من الوجوه والأجساد ولا يحتمل إنسانٌ إنسانًا، وخاصة في مواقع الزحام، والتجمعات البشرية.

المدرج الكبير يبدو مُكيَّفًا طبيعيًّا لارتفاع حوائطه واتساع مساحته، وقلة عدد طلاب الامتحانات بالمقارنة بطلاب المحاضرات العامة، وأحظى بمكان جيد قريب من النافذة الضخمة، ويمكن أن أخرج منه مباشرة.

تسلمت ورقة الإجابة من الملاحظة، وهي سيدة في منتصف

العمـر مـن موظفـات الكليـة، ويشـاركها الملاحظـة موظـف آخـر يقترب من الستين أبيض الشعر فـارع الطـول قـوي البنيـان، يلـبس نظارة طبية، ولكنه يكشف آخر المـدرج ومـا فيـه بدقـة، يـدل علـى ذلك نداؤه على طالب في آخر المدرج من أسفل يـتكلم مـع زميـل مجاور له.

هناك ملاحظـون عديـدون، كـل لجنـةٍ لهـا ملاحظـان وهنـاك مراقب لهذه اللجان، بالإضافة إلـى هيئـة التـدريس وأعضـاء الكنـترول الذين يباشرون المـرور مـن حـينٍ لآخـر ويتفقـدون اللجـان وسـير الامتحان بصفة عامة، وقد يمرُّ عميد الكليـة فجـأة، ومـع كـل هـذا الاهتمـام بضـبط اللجـان، فمعظـم الطـلاب يغشـون كـلٌ بطريقتـه، وقد دخل الموبايل إلى ساحة الغشِّ، عـن طريـق السـماعات التـي يضعها الطلاب في آذانهم تحت غطاء الـرأس أو في أمـاكنَ أخـرى، ولكـن الطـرق التقليديـة أكثر شـيوعًا حيـث يعتمـد الطالـب علـى إجابة من بجواره أو مـن أمامـه أو مـن خلفـه، وهنـاك الكتابـة بقلـم الرصاص على الطاولة التي يكتب فوقهـا الطالـب، أو علـى الجـدران الملاصقة للمقاعد بالنسبة لمن يمتحنون في الحجرات أو الصـالات

والطرقات، فضلًا عن الكتابة في الأوراق الصغيرة بخطٍ أصغر ويضعها الطلاب في ثنايا ملابسهم، وهناك أيضًا حالات غريبة تتبعها بعض الطالبات غير المحجبات حيث يكتبن على أذرعهن أو أفخاذهن، وهي طريقة تستعصي على الملاحظين الرجال، لأنها تسبب لهم مشكلات ليسوا في حاجة إلى الدخول فيها.. أبسطها ادعاء الطالبة أن الملاحظ يتحرش لها، ومهما كان صادقًا، فإن الغبار الذي يثار حوله لن يزول سريعًا. إن كيدهن عظيم!

معظم الملاحظين من موظفي الكلية وتتم الاستعانة ببعض موظفي الجامعة لاستكمال العدد. ملاحظو الكلية فيهم من يعرفني وخاصة من يعملون في شئون الطلاب. يعرفون أنني الطالبة التي تنجح بامتياز وتصرف مكافأةً شهريةً أيام الدراسة. فإذا جاءوا للملاحظة في لجنتي نظروا إليَّ نظرة تقديرٍ واحترامٍ ومرُّوا بجواري دون أن يداخلهم شكٌ أنني أجيب من رأسي، ومضوا لملاحظة الآخرين.

على مدى وقت الامتحان، يقوم الملاحظون بالتنبيه المتكرر

على الطلبة هنا وهناك بضرورة النظر في ورقة الإجابة، أو سحب أوراق الغش من بعضهم، أو نقل طالب يغش من مكان إلى آخر، أو سحب ورقة الإجابة والأسئلة، وإخراج الطالب من اللجنة، فتحدث الاحتكاكات بينه وبين الملاحظين، وقد ينصرف الطالب إذا وجد نفسه مدينًا والغشُّ ثابتٌ عليه، فيفضل الانسحاب حتى لا يُقدم إلى مجلس تأديب، وهناك من يتمادى معتمدًا على قوى غير منظورة تحميه أو تنقذه من العقاب. وقد يلجأ بعضهم إلى ارتكاب حماقة بالاعتداء على الملاحظين عقب انتهاء الامتحان، وخروج الملاحظين إلى بيوتهم.

الأمور بالنسبة لي تمضي على ما يرام. أكتب الإجابات بدقة وفقًا لمقتضيات السؤال. ولكن الرجل الأشيب الذي يلاحظ لجنتي لا يكف عن المرور بجواري، ينزل الدرجات في الممر، ويصعدها، والملاحظة أيضًا تأتي وتقف إلى جواري.

لم أهتم في بادئ الأمر، وتجاهلت ما حولي، ولكن حركة الرجل والمرأة لم تتوقف. مضى أكثرُ من نصف الوقت. أجبت على معظم الأسئلة، وفجأة كف الملاحظان عن الحركة من

حولي، فعدت إلى متابعة الكتابة، وظننت أنهما تعبا من الحركة والملاحظة، وبعد وقت غير قصير رأيت يد المرأة تطبق على يدي وتمسك بورقة الإجابة والرجل يأمرني بالنهوض ليأخذ أوراقًا كنت أجلس عليها. رحت أصيح، وأصرخ، وأصوِّت، وأبكي، وأقبل يد المرأة والرجل، ولكنهما كانا مشغولان بإخراجي من اللجنة، وجمع الأوراق التي وجداها في يدي، والموجودة في طيات كراسة الإجابة، والتي كنت أجلس عليها.

كان الذهول يسيطر على الملاحظين الذين يعرفونني، وفي داخلهم سؤال استنكاري: من تحصل على امتياز تقوم بالغش؟ هل كانت تغش منذ بداية التحاقها بالكلية وتحصل على الامتياز والمكافأة في غفلة من الأساتذة والملاحظين والمراقبين؟ أربع سنوات وهي تخدع الكلية وهيئة التدريس؟ يا لها من مأساة!

لو كان طالبًا مجهولًا أو ضعيف المستوى ما اهتموا به مثلما اهتموا بحالتي، وربما كانوا اكتفوا بطرده من اللجنة وكفي الله المؤمنين شر القتال. كان صياحي وصراخي من العوامل المساعدة على تحويل الموضوع إلى قضية عامة في الكلية، وخاصة

أن جسم الجريمة موجود، وفي أيديهم، ومعه شهادة الملاحظين.

عندما فتحوا محضر التحقيق أنكرت أن تكون الأوراق لي، وزعمت أنها ألقيت علي، وهو ما جعل الرجل والمرأة يصران على مضاهاة الأوراق بكراسة لإجابة، وهو ما كشف التطابق التام بين الخطين أي إنه خطي وليس خط أحدٍ آخر، وأُغلق المحضر، وقرر العميد تحويل المسألة إلى أستاذ المادة لكتابة تقرير عن مدى الإفادة من الأوراق المضبوطة، ليرفق مع المحضر ويوضع أمام مجلس التأديب.

ألقيت بنفسي في حضن أمي وأنا منهارة ودموعي تغطي وجهي:

- خيرا يا ابنتي.. ماذا جرى؟
- ضاع كل شيء يا أمي؛ ضاع أملي.
- تكلمي.. قولي ماذا حدث؟
- ضعت يا أمي، لن أكون معيدة، ولا دكتورة!

كان النشيج يعصف بي. لم يحدث من قبل أن بكيت بمثل

هذه الصورة التي تهزني وتطحنني. راحت أمي تسألني عما حدث وأنا لا أعرف كيف أجيب:

- اهدئي يا ابنتي وأخبريني.
- لا أعرف كيف أخبرك يا أمي.
- هل اعتدى عليك أحد؟
- كلا يا أمي!
- إذًا ما الذي حدث؟
- الامتحان.
- ماذا في الامتحان؟
- لقد ضبطوني أغشُّ.

ضربت صدرها بيدها:

- يا للعار! غش؟
- نعم يا أمي.
- كنت تغشين؟
- نعم يا أمي؟

- وماذا فعلوا معك؟

- حولوني لمجلس تأديب.

- ماذا يعني؟

- محكمة للطلبة تحكم عليهم بالعقوبات إذا أخطأوا.

- وحكموا عليك؟

ينتظرون التقرير.

- أي تقرير؟

- تقرير أستاذ المادة.

- لا أفهم.

- التقرير الذي سيحدد هل أفدت من الأوراق التي كانت معي أو لا.

- اذهبي لأبيك وأخبريه لعله يجد حلًا!

- لا لن أذهب. لا أستطيع أن أخبره.

نزلت أمي إلى المحل، وهمست في أذنه بما سمعتْ مني.

ترك الزبائن وأمي، وصعد إليَّ. كان لونه مُصْفَرًّا وغاضبًا وكأنه يتوَّعدني. لقد حطمت حلمه الذي كان يحلم به منذ سنين، خذلته ووضعت رأسه في التراب، ولن أصبح معيدة ولا دكتورة. طلب مني أحكي له ما حدث بهدوء. ثم قال لي:

- سأذهب معك إلى الكلية غدًا.

- لماذا؟

- لأقابل أستاذ المادة.

- لا داعي يا أبي.

- سأذهب وأعرف كيف أعالج الموقف.

وتركني ومضى مكفهر الوجه ينفخ الهواء ويخبط الباب وراءه.



(١٦)

في الحر الخانق، كنت وأبي نلتمس الظل ونمشي تحت الأشجار الباسقة بفناء الكلية، في طريقتا إلى الدكتور سالم، أستاذ المادة التي تم ضبطي وأنا أغش في إجابة امتحانها.

قال له أبي:

- ابنتي تنجح طوال السنوات الماضية بامتياز ولا تغش.
- ولكنها ضبطت ومعها أوراق الغش.
- هذه ليست أوراقها.
- القضاء هو الذي يحكم بذلك.
- ولكن سيادتك ستكتب تقريرًا.
- وماذا في ذلك؟
- تقريرك هو الذي يرجح الحكم.
- وما المطلوب مني؟
- أن تقف إلى جانب ابنتي.
- قل إلى جانب الحق.

وفي محاولة لإخافة الدكتور وابتزازه قال له أبي:

- سمعت أنك من أنصار الجماعات الإرهابية؟

انتفض الدكتور ونهض من كرسيه والشرر يتطاير من عينيه، ووجه خطابه إلى أبي:

- تهددني؟ تفضل.

وأشار إلى الباب، في دعوة إلى الخروج، ومغادرة المكان.

قال أبي الذي باغته موقف الدكتور، وهو يبدو ذليلًا في تراجعه:

- تطردني؟

- تفضل.

قالها الدكتور بصوت قاطع وعال. لم نملك إلا الخروج، وقابلنا الدكتور عمارة، وشرح له أبي ما جرى من الدكتور سالم، فطيَّب خاطره، وقال له:

- إن الطلاب أبناؤنا، ونحرص عليهم مثل آبائهم، ولن يُظلم أحد.

ثم طلب من أبي أن يعود إلى البيت مطمئنًا إلى أن العدالة ستتحقق، ولن ينال الطالبة، التي هي أنا؛ أي ظلم تحت أية ذريعة.

عدنا إلى البيت دون أن نحقق شيئًا ذا بال. كنت أعلم أن الأوراق هي أوراقي، وأنني الذي كتبتها بيدي، وأن الرأفة التي يمكن أن أحصل عليها، أن يتضمن التقرير أنني لم أفد منها في الإجابة.

أعترف أنني فيما بيني وبين نفسي كنت بارعة في الغش، وكنت في الأيام السابقة على الامتحان أجهز الإجابة على الأسئلة وفقًا لما شرحه الأستاذ، وأحتفظ بالأوراق في أماكن عدة من ثيابي وخارجها، وأنقل وأنا مطمئنة بثبات، وحين ينتهي النقل أتخلص من المنقول منه بتكويره وإلقائه من الشباك الواسع أو تحت قدمَيَّ.

كانت أعصابي قوية عند النقل، لا أتلفت يمينًا أو شمالًا. المهم أن تكون الأوراق بعيدة عن عين الملاحظ، لا أتكلم مع من يجاورني. إذا نظر إلى ورقتي يتولى الملاحظ تنبيهه أن ينظر في كراسته. كانت سمعتي بالنجاح الفائق تبعد عني أي اشتباه، وهو ما أحسنت استغلاله في السنوات الماضية. وكنت أظن أن هدفي أو هدف أبي بمعنى أدق؛ سيتحقق وأصبح معيدة، ودكتورة. ولكن

خاب ظني. الدلائل تشير إلى ذلك، وإن كان لدي أمل. فهمت من الدكتور عمارة، أنهم يترفقون بالطلبة ولو كانوا مخطئين، ولعلهم يرفقون بي. قلت لأبي ذات يوم:

- إن وظيفة المعيد أو الدكتور في الجامعة لم تعد ذات قيمة.

رد بانزعاج:

- كيف؟

- هناك الآن وظائف عديدة تدرُّ دخلًا كبيرًا، ولأصحابها نفوذٌ عظيمٌ، وجاهٌ أكبر وأفضل وأحسن من هيئة التدريس في الجامعة.

- الجامعة تظل صفوة المجتمع، وذروة المناصب.

- لم يعد الأمر كذلك. المرتبات ضئيلة، والمستوى الاجتماعي الذي يرتبط بالمال هبط بهيئة التدريس إلى مستوى الموظفين العاديين.

- ولكن الجامعة ميزان المجتمع؟

- أسمع منك كلامًا مهمًا لم أتوقعه يا أبي.

- ترين أني لا أفهم في القضايا العامة؟

- حاشا لله. ولكني ظننتك لا تهتم بمثل هذه الأمور.

قال بأسى من ظلمته الأيام:

- لو لم أدخل مدرسة الصنايع كنت دخلت الثانوي والجامعة، وربما كان لي شأنٌ كبير!

حاولت أن ابتسم في جو الإحباط والإخفاق، وقلت لأبي:

- هناك وظائف في الجهات التي يسمونها سيادية، وشركات الاتصال، والشركات البترولية والاستثمارية يتقاضى فيها الموظفون الشباب مبالغ خرافية أضعاف ما يتقاضاه الأستاذ الجامعي.

وأضفت لبيان فارق مهم:

- ولا ينفقون أعمارهم وعيونهم في البحث والدرس، وسهر الليالي حتى لحظة الموت في القراءة والكتابة.

ثم بينت أن المحظوظين يفوقون هيئة التدريس، فقلت:

- إن أصحاب هذه الوظائف يتمتعون بامتيازاتٍ عديدةٍ في السكن والتعليم والصحة والمواصلات والترفيه. وهو ما لا يتوفر لهيئة التدريس.

تمنيت في أعماقي أن أكون بكلامي عن الوظائف الأفضل أن أُعزِّي أبي، الذي علق أملًا كبيرًا على تعييني في الجامعة، ولم أحقق أمله كما يبدو من الظروف الأخيرة التي أمرُّ بها. وفاجأني بقوله:

- إن مجلس التأديب قد يحرمك من إكمال تعليمك.
- لا قدر الله.
- يبدو أن الدكتور سالم سيكتب تقريرًا في غير صالحك!
- لننتظر... وسيظهر كل شيء.

في اليوم التالي عرفت أن مجلس التأديب قد حرمني من مادتين، إحداهما مادة الدكتور سالم، والمادة المتبقية، عليَّ أن أحضر امتحانهما في دور سبتمبر القادم، أو الدور الثاني كما يسمونه. ومعنى ذلك أنني لن أُعيَّن معيدة أبدًا، لأن المعيد يتم اختياره من دور مايو. وقد عرضت الأمر على بعض الموظفين في شئون الطلاب، فاقترح أن أكتب اعتذارًا عن عدم دخول الامتحان في دور سبتمبر، والانتظار لدور مايو في العام القادم، أي الانتظار سنة كاملة، شرط الحصول على الامتياز في المادتين لأكون الأولى

وصاحبة المجموع التراكمي الأكبر.

أحسست بأنني مثل الطمَّاع الذي أضاع بطمعه كل شيء. فقد فقدتُ الخطيبين، أحدهما سيكون أستاذًا بالجامعة، والآخر يعيش ظروفًا ميسرة، ويسعي للاستزادة من العلم وقد يستمر في الدراسات العليا، لينضم إلى هيئة التدريس في إحدى الجامعات أو العمل في جامعة خارج البلاد.

كما فقدت الأمل في التعيين معيدة. هكذا تبدو الأحوال، مع أنني وافقت على تأجيل امتحان سبتمبر إلى مايو الذي يليه. وهأنذا خالية الوفاض، أجلس بجوار أمِّي، أو أنزل إلى المحل لأبيع الخضروات والفاكهة أو الأعلاف، أو أشاهد التلفزيون ومسلسلاته، وأخباره التي لا تعنيني مثل انتخاب أوباما رئيسًا لأميركا وتفكيره في إغلاق سجن جوانتانامو، وتجاوز سعر برميل البترول مائة دولار، ووفاة مغني البوب المشهور مايكل جاكسون، والمفكر المصري مصطفي محمود، والممثل محمود فرج الذي ظهر مع إسماعيل ياسين في فيلم الفانوس السحري.

لم يعد لي غير انتظار ابن الحلال الذي يطرق الباب. وهل في مثل هذه الظروف يطرق أحد بابي؟ ماذا فعلت بي يا أبي؟ إنك

الآن لا تستطيع أن تناديني، وتقول: يا دكتورة!

أعلم أنِّي خذلتك! ولكنك أضعت عليَّ حياتي.

كنت تريد أن ترى نفسك من خلالي. دكتورة زوجًا لدكتور. فلا تحقق هذا ولا ذاك!

محمود يستعد لمناقشة الماجستير، رأيت اللافتة التي تعلن عن اللجنة والموعد والقاعة. كنت أتمنى أن أكون الخطيبة التي تجلس مع المشاهدين لأرى حوار المنصة معه، وإجاباته على أسئلة المناقشين. ولكن أنَّى لي ذلك وقد غدرتُ به ولم أنتظر شهرين أو ثلاثة حتى تنجلي الأمور. تصرفت سريعًا وفقًا لما قرره السيد والدي. أبارك لك يا محمود مُقدَّمًا، فأنت تستحق كل خير، ولا أستحقك، لأن التي تستحقك امرأةٌ أخرى تملك القدرة على العطاء والإخلاص لقرينها.

وهي امرأة محظوظة بالتأكيد، لأنها ستقترن بشخصٍ طيبٍ لدرجة السذاجة، ولكنه ذكيٌ جدًا، وجادٌ جدًا، ومخلصٌ جدًا.

مخلوف اختفى تمامًا، وقد حاولت أن أعيد العلاقة، ولكنه حين يرى رقم هاتفي يغلق على الفور. يا لي من متسولة! أبحث

عمن ينتشلني من هزيمتي وضياعي وإخفاقي الذريع.

لم أعد أجد حرجًا في مساءلة نفسي؛ لماذا حصدت الخيبة ولم أحقق الحلمَ الذي كان أمره وشيكًا؟

أعترف أنني مذنبة. لقد كنت ذكيةً ومجتهدة، وحققتُ في الثانوية العامة مجموعًا مرتفعًا، وخاصة في اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، وقد فضلت دراسة الأخيرة في الجامعة، لأنها كانت أقرب إلى مزاجي الخاص، وفي السنة الأولى اجتهدت، ونجحت بامتياز عن جهدٍ حقيقي، ونمت سمعتي الطيبة بين الزملاء وهيئة التدريس، حتى السفارة الفرنسية شجعتني، وكافأتني ببعض الهدايا، ولكن غوايةَ الغشِّ جذبتني إلى تيارها، فاستسلمت، وفضلت النجاح بغير جهد، فمعظم الطلبة -إن لم يكونوا كلهم- يغشُّون. حتى وقعت الواقعة، وانقلبت السمعة الطيبة إلى سمعةٍ قبيحة. ما عاد أحد ينظر في وجهي حين أذهب إلى الكلية لأتابع المحاضرات في المادتين. زميلاتي، وصديقاتي، حتى زملائي يتجنبون التحدث معي. سمعت إحداهن تقول للأخرى وتظن أنها لا تراني:

- كانت تخدعنا وتتفوق علينا بالكذب.

- يا لها من ماكرة!

- إنها ترى معظم الطلبة يغشون.

- ولكنها الأولى دائمًا. ما كان لها أن تفعل مثلهم.

الأساتذة أعرضوا عني، ولا أحد منهم يريد أن يتحدث معي، وإذا دعت الضرورة فالكلام من طرف لسانهم وفي اقتضاب، مع جمود في الملامح. كدت أصيح: لست وحدي التي قامت بالغش، كلهم يغشون وعلى رءوس الأشهاد، ولا يتعامل أحد معهم بمثل المعاملة التي ألقاها. وحده الدكتور عمارة، كان جانبه لينًا. حين شكوت إليه معاملة الأساتذة، قال لي:

- حسنات الأبرار سيئات المقربين!

حاولت أن أفهم ما قاله، ففسره لي ببساطة:

- هذا من كلام الأتقياء. الأبرار هم الطيبون البسطاء، أما المقربون فهم الذين وصلوا مرتبة تصل إلى التقوى.

- كيف تكون الحسنات سيئات؟

- الشاهد في العبارة أن ما يفعله المقربون حسنًا دون المستوى

-مع أنهم غير مطالبين بما هو أكثر، ويراه الدين والناس طيبًا- فهو بالنسبة لهم كالسيئات. لأنه ينتظر منهم دون إلزام ما هو أفضل.

- ولكني لم أخطئ وحدى؟

- اسمعي يا ابنتي. الخطأ دون قصد يغفره الله شرط أن يتوب من اقترفه. يقول تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

- ماذا على أن أفعل الآن؟

- التوبة والعمل وعدم العودة إلى الغش.

- هل سأعين معيدة؟

- دعينا ننتظر الامتحان أولًا. وساعتها لكل حادث حديث!

كم هو مريح الدكتور عمارة. ليت أبي حمل شيئا من أخلاقه وسلوكه، ولكننا لا تختار آباءنا أو أمهاتنا!





١٧

انتظرت الامتحان الذي جاء مع بشائر الصيف القائظ. حاولت أن أعد له بالطريقة التي كانت. ولكني تذكرت كلام الدكتور عمارة. ذاكرت واجتهدت. استيعابي للموضوعات كان صعبًا ومزعجًا، ومع ذلك حاولت بذل جهد أكبر، وفوضت الأمر لله. عرفت ما أملاه أحد الأساتذة من أسئلة، ورحت أراجع المادة لأجيب عليها إجابةً نموذجية. أستاذ المادة الأخرى رفض أن يضع أسئلة، وطالب بفهم المادة واستيعابها.

لم يظهر الدكتور سعيد حافظ في الفصل الثاني الذي سأمتحن فيه، بعد أن سحبوا منه الدكتوراه بسبب السرقة العلمية. كان ينتظر محاكمةً جنائيةً بعد مجلس التأديب الذي سحب منه الدكتوراه. سمعت من بعض الزميلات اللاتي يحملن بعض المواد التي رسبن فيها؛ أن المحامين نصحوه بالاستقالة من الجامعة لأن المحكمة كانت ستفصله من العمل وتفرض عليه غرامةً كبيرةً، وربما السجن، فآثر الاستقالة، والسفر إلى الخارج ليبحث عن شهادةٍ وعمل.

مررتُ بمكتب محمود فوجدتُه خاليًا، عرفت أنه سافر للدراسة بالمنحة التي كان ينتظرها، وكان في الصيف الماضي قد حصل على الماجستير، وتحسنت صحتُه إلى حدٍ كبير. شعرت مرة أخرى بفداحةِ الظلمِ الذي أوقعتُه به، فاستغفرت ربي إنه كان غفارًا، كما فهمت من الدكتور عمارة.

أديت امتحان المادتين. لم أحاول الغش، ولم أنظر إلى أحد من الطلبة في أي اتجاه لأفيد منه، أجبت بجهدي، ولكن الإجابة لم تكن مُرضية بحال. وانتظرت النتيجة.

الأيام ثقيلة وتمر ببطء، وتتنازعني الأفكارُ السوداء. ماذا أفعل لو كانت النتيجة سلبية؟ كيف أواجه الزملاء والأهل؟ كيف ستكون الحال لو فقدت الأمل تماما في التعيين بالجامعة؟

حتى هذه اللحظة لم يتقدم إليَّ خاطب. شعرت بالدونية والهوان. كيف صرت مثل «جُلْمُوْدِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ» وفقًا لبيت الشعر الجاهلي الذي حفظناه في أولى ثانوي؟

في المحل أبيع للسيدات والبنات والرجال أيضًا؛ الفول والعدس والحلبة والأعلاف التي يحتاجها مربو الدواجن والطيور

والخرفان والعجول التي يربطونها أمام البيوت. المنطقة معظمها من القادمين من الصعيد والأرياف، وهم حريصون على تدبير حياتهم بطريقةٍ تقلل من الإنفاق بأية وسيلة. يصنعون الفول المدمس في البيت وكذا الكشري وغيره، ولا يشترون الطيور والدواجن من المحلات، بل يربونها على الأسطح وفي الشرفات، ولا يعنيهم إذا كانت روائحها مزعجةً أو مثيرةً للمتاعب، يذبحون منها عندما يريدون أكل اللحوم، ويتناولون بيضها، أو يستثمرونه في تفريخ جيلٍ أو أجيالٍ جديدةٍ من النوع الذي يبيض. أمَّا الخرفانُ والعجولُ، فيتمُ تسمينُها وبيعُها أو ذبحُها في الأفراحِ أو المناسباتِ الأخرى، وقد يتشاركون فيها عندما يقصدون ذبحَ أضحيةٍ، أو حضورَ الموالد الشعبية الشهيرة.

عرفت كثيرات وكثيرين من خلال المحل، وعرفت كيف نقل القادمون من الصعيد والريف عاداتهم وتقاليدهم إلى الأحياءِ العشوائية التي أقاموها فوق أجودِ الأراضي الزراعية التي باعها أصحابها طمعًا في أسعارها المرتفعة. يشتري الواحد منهم خمسين مترًا، ويقيم عليها ناطحةَ سحابٍ مصغرة. الغرف فيها ضيقة،

والسلالم بالكاد تُفلت شخصًا واحدًا والحمامات مجرد علبةٍ خرسانية تستر الشخص الذي يستخدمها. والشارع الذي هو عبارة عن حارةٍ ضيقةٍ أو زقاقٍ تقترب فيه النوافذُ من الأرض، وتُربط فيها الخرفانُ والعجولُ حيث تتناولُ العلفَ والحشائشَ الخضراء أو البرسيم الذي يتم جلبُه من الحقول، أو يتم بيعه بمعرفة التجار. السكان يعتمدون على الأعلاف بصورةٍ أساسيةٍ لعدم توفر البرسيم والحشائش الخضراء طوال العام.

كان وقوفي في المحل فرصة لمعرفة أخبار الحي الذي نعيش فيه، والحوادث التي تقع من حين لآخر، وكذا أهم الزيجات والمواليد الجدد، وغرائب الطلاق والخلع، والسفر إلى الخليج وإيطاليا والعودة من هناك. قضاءُ الوقت في المحل يشغلني عن التفكير في الخيبة التي أصابتني وحطمتني، وإن كان أبي لا يعترف بذلك.

وضع تليفزيونًا صغيرًا في المحل ليسليني وأنا ألبي طلبات الزبائن أو أنتظرهم. أشاهد أخبار الموضة والطبخ بالإضافة إلى المسلسلات المكررة الماسخة وقنوات الرقص والأفراح. أُغيِّر

القنوات لو جاءت نشرةُ الأخبار. كلها ضرب وقتل ودماء تجري مثل الأنهار؛ فلسطينية وعراقية وصومالية، وطائرات أميركية وصهيونية تضرب بكلِّ جرأةٍ وقسوةٍ، وخيبةٌ عربيةٌ لا حدودَ لها مثلُ خيبتي.

بعض السيدات لديهن رغبة قوية في الثرثرة والحكي. تطلب الواحدة منهن نصف كيلو فول أو ربع كيلو عدس، أو كيلو طماطم، وبعد أن تحمله تقف وتسأل عن شيء ما، وتكلمني عن العريس أو العدَل، وتواصل نشرة أخبارها عن زيجة حسنة بين ابن فلان، وبنت علان، وتتحدث عن العفش الذي لم يسبق أن دخل الحارة، والعزِّ الذي يعيش فيه أهلُ العريسِ أو العروسة. أستمع إلى الكلام الذي أشعر أنه يوخزني بسهامٍ قاتلة، وكأنَّه يذكِّرُني أنني عاطلة من الحسب والنسب والجمال، فلا يتقدم إليَّ أحد. نسيت الدين أيضا وهو حق، ولكن ماذا أفعل؟

كلمتني زميلة أنها علمت أن النتيجة ظهرت، وستذهب للاطلاع عليها، وتتمنى لو قابلتني هناك. لها الشكر لأن أحدًا ممن أعرف يريد أن يراني أو يكلمني. في الكلية رأيت الكشوف



بحثت عن اسمي. نجحت في المادتين بدرجة مقبول! عشرة من عشرين. من كانت تنجح بامتياز وتحصل على عشرين من عشرين أو على الأقل ثمانية عشرة من عشرين؛ تنجح الآن بعشر درجات؟ يا للمأساة، ومع ذلك فإن ترتيبي ضمن الأوائل. أي هناك أمل لأكون معيدة.

في شئون الطلبة اطلعت على درجات المادتين، وجدت أنني نجحت فيهما بالرأفة. حصلت على تسع درجاتٍ في واحدة، وثماني في الأخرى فتم رفعهما بالرأفة إلى عشرة، درجة النجاح، وهكذا بدأت بالامتياز في السنة الأولى، وانتهيت بالرأفة في السنة الرابعة الأخيرة.

هل لي وجه لأتحدث مع أساتذتي عن رغبتي في التعيين معيدةً؟

إنهم يتحاشون لقائي، ويتجنبون الكلام معي!

لم أجد غير الدكتور عمارة أبثه محنتي، ورغبتي. الرجل دمث الخلق، طيب القلب. استقبلني كأنني لم أرتكب جريمة الغشِّ، وجلست أحدثه عن النتيجة، وأمر التعيين. شجعني على

النظر إلى المستقبل، ونسيان ما كان. ثم قال لي : «تقدمي بطلب مرفقًا به درجات السنوات الماضية والمجموع التراكمي، وسيبحث القسمُ الموضوع». وقال:

«نسأل الله أن يقدم ما فيه الخير».

انصرفت عائدةً إلى البيت تحت هجير الشمس، وفوق هجير النفس، وشرحت لأمي ما رأيت. شجعتني، وطلبت مني الرضا بأمر الله. أعلم أن داخلها يحترق من أجلي، ولكنها لا تملك شيئًا تقدمه غير الدعاء مع أنها لا تصلي! إنها كما تقول دائمًا تطمع في عفو الله.

علم أبي بالنتيجة، فلم يُعلِّق. ولكن وجهه يفور بالغضب والهزيمة، مع أنني نقلت ما قاله الدكتور عمارة، وما تضمنه كلامه من أمل. ولكنه لأول مرة يدرك أن المقدمات تقود إلى النتائج.

فوجئت عند استخراج شهادة الدرجات أن المجموع التراكمي يجعلني الأولى بغير منازع. وقد أثلجت صدري هذه المفاجأة. فرحْتُ وطرْتُ إلى القسم وقدمت الطلب في انتظار الموافقة، قيل لي إن اجتماع القسم بعد عشرين يومًا، فانتظرت على أحرَّ من

الجمر، وانشغلت بالمحل، والتفكير في ابن الحلال الذي لم يأت.

جاءت إحدى السيدات التي تتردد على المحل لشراء بعض البقوليات، وأرادت أن تفتح معي حديثًا شخصيًا. قالت وهي تبتسم:

- أما جاء ابنُ الحلال؟

- ربنا كريم يا خالة.

قالت وهي تسعى للتقرب منى:

- إنه سيكون محظوظًا.

- أشكرك.

أردفت تمدحني:

- إنك جميلةٌ ومتعلمة.

- بارك الله فيك.

- تستحقين أفضلَ الرجال.

- كلُ شيءٍ نصيبٌ يا خالة.

لا أدري لماذا لم أسترح لكلام هذه السيدة. تبدو ريفيةً طيبةً

في طريقة كلامها وتفكيرها، ولكن داخلي الممتلئ بالتناقضات حول الموضوع يجعلني أملُّ الحديثَ حوله، وأرفُضُه.

كانت المرأة تريد فيما يبدو أن تقدم لي عرضًا ما، ولكني لسببٍ غير مفهومٍ أغلقتُ عليها الطريق، مع أنِّي في حاجةٍ إلى من يقول لي: كيف الحال؟

هل هي حالة نفسية تتلبسني تعبيرًا عن الخيبة المركبة التي أعيشها بسبب الجامعة ومحمود ومخلوف وأبي الذي أحبه ولا أستطيع مخالفته؟

عشت الهزيمة والإحباط حتى النخاع، وإن كان الأمل يبرق في الظلمة مثل النجم الثاقب، ولكنه يظل أملًا في علم الغيب، لا أدري هل سيتحقق أم لا ؟ الأمل أن يتم قبولُ طلبي الذي دفعت به إلى القسم للموافقة على تكليفي بالعمل معيدةً، وإذا تحقق أملي، قد تنفك عقدةُ الإحباط والخيبة، وتتفتحُ الزهورُ من جديد. إن الدكتور عمارة لا يكف عن بثِّ الأمل في نفسي ونفوسِ الطلابِ بصفةٍ عامة. لعل ذلك يرجع إلى تربيته الدينية الكريمة، وقراءته الدائمة للقرآن، ومواظبته على الصلاة والدعاء، وإيمانه

الذي لا يتزعزع بربه. تمنيت أن أقتدي به، وأن افعل ما يفعله، ولكني للأسف لم أجد من يوجهني إلى هذا الميدان الذي تتجلى فيه رحمة الله بكل من يدعوه بإخلاص، ويرجوه في ضراعة. إنني أفكر في حفظ القرآن أو بعض أجزائه على الأقل، وأن أديم النظر والتأمل في آياته، ولعلي أتجاوز كسلي وأواظب على أداء الصلاة، ولا أتخلف عن فرض من فروضها. سأبدأ بمطالعة بعض الكتب التي أتعلم منها طرق الطهارة وأداء الصلاة، وسوف أخرج مصحفي من الصوان ليكون أمامي أطالع فيه قدر ما أستطيع وأفيد من إذاعةِ القرآن في ضبط القراءة وتتبع القراء لأُحْسِن التلاوة، وفهم ما أقرأ، وسأوفر تفسيرًا موجزًا لمتابعة المعاني التي تستغلق عليَّ.

لو فعلت ذلك هل يتبعني أبي؟ الله أعلم!

ذهبت إلى القسم. وسألت عن طلبي، فأخبروني أن الطلب قد رفع إلى رئيس الجامعة مرفقًا به محضر الغش، والعقوبة التي ترتبت عليه، ليصدر قراره بالقبول أو الرفض.





من هذه السيدة الجميلة التي ترتدي ملابس فاخرة، وتزهو بنفسها وشعرها الأشقر الطويل ونظارتها السوداء التي تغطي عينيها، وتحجب جزءًا من وجهها الأبيض الناصع؟

ترتدي فستانًا قصيرًا، فوقه سترة صوفية شبكية وتطلق ذراعيها العاريين في الهواء الطلق لتبرز نصاعة بشرتها، ولدانة جسمها، وإيحائه المثير!

أقبلت السيدة على المحل الذي يقف فيه أبي، وألقت عليه السلام، وقدمت له نفسها بوصفها قريبة أحد التجار في منطقة بولاق. كان أبي يعرف عددًا من التجار هناك، وعقد مع بعضهم صفقات صغيرة نوعًا ما، كبرت نوعًا ما بعد ذلك وحققت أرباحًا لا بأس بها شجعته على تكرارها، ووفرت له عائدًا ومدخراتٍ جعلته في مصافِّ كبار الأغنياء في الحارة.

قالت المرأة الجميلة لأبي:

- لدينا مشروع مربح.

- كيف؟

- نتاجر في المسامير، وتعتمد علينا محلات الجمهورية في الوجهين القبلي والبحري.

- هل لديكم مصنع؟

- نشتري من المصانع الكبيرة والصغيرة التي تنتج المسامير، ونوزع على تجار المحافظات بتسهيلات مغرية.

- اسمحي لي أن أسأل سؤالًا ضروريًا.

قالت بدلال وابتسامة ذات مغزى:

- تفضل.

- هل أستطيع أن أعرف من أنتم؟

قالت في جدية مصطنعة:

- بالطبع. نحن مجموعة من الشركاء، وشركتنا مسجلة في الشهر العقاري.

- وأين مقركم؟

راحت تصف له المكان في بولاق من خلال الشوارع التي

يعرفها أبي مذ كان مع جدي في المنطقة، ويرافقه إلى التجار في عقد صفقاته المتنوعة. وأضافت:

- هذه هي علامتنا التجارية على مكاتباتنا.

وأخرجت بعض الدفاتر المطبوع على أعلاها وفي الزاوية اليمنى منها اسم شركة مكة المكرمة لتجارة الحدائد والمسامير، وتحت الاسم عنوان الشركة، وأرقام الهواتف الأرضية والمحمولة.

سأل أبي سؤالًا آخر:

- وكيف يتم التعامل مع الشركة؟

- نحن ندفع أرباحًا بنسبة مئوية من مبلغ المشاركة.

- كم تبلغ النسبة؟

- عشرون في المائة.

أبدى تعجبه ودهشته:

- إنها نسبة كبيرة.

فعلقت على ذلك قائلة بما يثير المزيد من التعجب والدهشة:

- وندفعها مقدمًا.

كأنه لا يصدق ما تقول فاستوضحها:

- حقًا ما تقولين؟

أخرجت من حقيبتها إيصالات تسديد الأرباح، وعرضتها عليه:

- اقرأ: هذه إيصالات التسديد موقعة من أصحابها.

سال لعابه، وحسب الربح الذي سيدخل إليه دون أن يبذل جهدًا، إلا تسليمها رأس المال، فوجده كبيرًا، ويتجاوز أضعاف ما يجنيه من المحلين؛ الأعلاف والخضراوات، ويبدو أن المرأة الجميلة قد استطاعت إقناعه، فشرب كأس السحر، وقرر المشاركة بمعظم ما يدَّخره في البنك، وحدد لها موعدًا ليسحب المدخرات ويسلمها لها. كان المبلغ كبيرًا، وعائده كما أقنعته الجميلة كبير أيضًا.

في أول الشهر التالي جاءت الجميلة ومعها الأرباح التي أسعدت أبي، وجعلته يحلم بثروةٍ كبيرةٍ ستتحقق في وقتٍ قصيرٍ، وراح ينتظر الشهر التالي.



مـرت أسـابيع ذهبـتُ بعـدها إلـى الكليـة لأسـأل عـن نتيجـة طلبي بالتعيين معيدة في القسم، كانـت الإجابـة صـادمة، فقـد رأت الجامعـة أن مـن أديـن بـالغشِّ، لا يصـلح أن يكـون عضـوًا في هيئـة التدريس!

انهار داخلي، وأحسست بالهزيمة القاتلـة، خرجـت مـن الكليـة لا ألوي على شيء. لا أستطيع أن أتكلم أو أتحدث. كأن الخـرس قد أصابني، مع أن الرفض كان ضمن الاحتمالات الواردة، وكـان عليَّ أن أحتمله وأتقبله نتيجة طبيعية لما صنعت يداي. ولكن متى كانت مشاعرنا خاضعة للعقل والمنطق؟

لم أرَ الطريقَ أمامي، وكنت أشعر بالاختناق مع أن نسـمات الخريـف في بدايته كانت تلطف الجو وتشيع بـين النـاس نوعًـا مـن الارتياح في الزحام الذي يعيشونه في المواصلات والشـوارع والبيـوت. لا أعرف كيف وصلتُ إلى البيت، وكـم استغرقت مـن الوقـت في رحلتي من الجامعة حتى وصلت إلى حينا العشـوائي. حقًـا؛ حـين يصـدم الإنسـان بصـدمة كـان يتوقعهـا، لأنهـا خالفـت مـراده، فإنـه يغيب عن الدنيا، ويفقد الإحساس بالزمان والمكان.

ساءلت نفسي وأنا على باب البيت: أما كان الأولى لو أنني سرت على درب الجِدِّ والاجتهاد فنجحت بامتيازٍ كما نجحت في السنة الأولى؟

ماذا يفيد استخدام «لو»؟

«لو» تفتح عمل الشيطان.

ارتميت على السرير دون أن أغيِّر ملابسي، ورحت في سبات عميق، عندما استيقظت عقب العشاء، وجدتني أتوضأ وأصلي وأبكي!

دخلتْ عليَّ أمي. أدهشها المنظر وأنا فوق السجادة. انطلقت منها تلقائيًا جملة «ما شاء الله!». بعد أن انتهيت قالت لي ورنَّة فرح تغزو كلامها:

- تقبَّل اللهُ يا ابنتي.

ثم أضافت:

- أول مرة تفرد سجَّادة الصلاة في بيتنا.

قلت لها:

- إن شاء الله ستفرد باستمرار. وسيزداد عدد السجَّادات.

قالت أمي:

- سأكون أول من يفرد السجادة بعدك.

- وفقك الله يا أمي.

وبعد لحظات، تساءلتْ بقلق:

- رجعت من الكلية، ونمت على الفور. ماذا هناك يا ابنتي؟

- لم أوفق في طلب التعيين.

- كل شيء قسمة ونصيب يا ابنتي.

- أنا أستحق ما جرى.

- لا تلومي نفسك. المكتوب على الجبين لابد...

قاطعتها وأنا أبدي صبراً وتجلدًا:

- ما فعلتُه يؤدي إلى الوضع الذي أستحقه الآن.

قالت بألم:

- كبدي عليك يا ابنتي!

- لا تتألمي من أجلي يا أُمِّي. لقد صارت معي شهادةٌ، يمكن أن أعمل بها في أي مكان.

غمغمت أمي بكلماتٍ لم أتبينها، ونهضتُ من فوق السجادة التي طويتها، بعد أن ذهبت، وبالتأكيد فإنها نزلت إلى المحل لتخبر أبي بانهيار آماله التي علَّقها على تعييني في الجامعة، وما كان سيترتب عليه من زواجٍ ومكانة.

لا أعرف ردَّ فعله، ولم يفاتحني في الأمر، ولكني رأيته جامد الملامح مقطب الجبين، تظهر على وجهه أمارات اليأس والقنوط والهزيمة. في المحل قال لي:

- آن لنا أن نبحث عن وظيفة.

قلت باستسلام:

- كما ترى.

قال والحيرة تبدو في كلامه:

- الوظائف الآن مرهونة بالوساطة والدفع.

- كيف؟

- لا وظيفة دون أن يكون هناك وسيط؟

- أين هو؟

- هذه هي المعضلة.

- ألا تعرف وسيطًا قريبًا؟

- أعرف كثيرين. لكن الوساطة لها مواصفاتٌ خاصةٌ، وتخصصاتٌ معينة. والوسيط صاحب شروط.

- ماهي شروطه؟

- الدفع أولًا وأخيرًا.

- وما قيمة الشهادة؟

- مجرد ديكور لا بد منه.

- وهل يمكن أن تجد وسيطًا دون دفع؟

- هذا ما حارت البريَّة فيه.

- ولم لا نستعين بأحد الكبار؟

- لا أحد منهم يخدم أحدًا إلا إذا تم الدفع. والسكرتير

يحصل على المبلغ الذي يحدده وفقًا للوظيفة والجهة التي تكون فيها، قبل أي كلام.

- وأين العدالةُ بين الناس؟

- هذا الكلام الكبير يقودنا إلى الهاوية.

واستطرد في شيء من السخرية يقول:

- كانوا يقولون إن العصر الملكي يعتمد على الرشوة، ولكنها كانت رشوةً بسيطة. أما اليوم فالرشوةُ صفقةٌ كبرى، بالإضافة إلى أن هناك وظائف محجوزة لأبناء فئاتٍ معينةٍ لا يقترب منها أبناءُ الناس العاديين الذين ليسوا من هذه الفئات.

وصمت قليلًا ثم قال وهو يشير في اتجاه النيل:

- هل سمعت عن الولد الذي تخرج في كلية السياسة والاقتصاد، وألقى بنفسه في النهر لأنه غير لائق اجتماعيًا، مع أنه الأول على الكلية؟ لقد حرموه من التعيين في وزارة مهمة لأن أباه فلاح، أي غير لائق اجتماعيًا!

قلت له بتصميم:

- أبي لن أعمل في وظيفةٍ عن طريق الوساطة.

وأردفت:

- سأبدأ من الغد بالمرور على المدارس الخاصة لأبحث عن وظيفةٍ ولو بمرتبٍ ضئيل. المهم ألَّا أجلس دون عمل.

قال بشيء من الأسى:

- ولماذا يا ابنتي لا نبحث عن وسيط؟ معقول الدنيا كلها هكذا!

- الدنيا ليست مثل مصر. الوساطة حرام، ولن أفعل شيئًا حرامًا ولو بعت فجلًا وجرجيرًا في مشنة أمام البيت!

لاحظ أبي أني تغيَّرت. وأني لن أستجيب لإرادته على طول الخط كما كان الأمر في السابق. نظر إلي حائرًا، ومضى.



١٩

حفيت قدماي من اللف على المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية. لم أجد من يعطف عليَّ، أو يقول لي لدينا وظيفة. كلهم يقولون عودي إلينا في أول الإجازة الصيفية، والمرتب حسب الاختبار والخبرة. عليَّ أن أنتظر نحو عام كامل حتى أجرب حظي مع هذه المدارس التي تسعى إلى امتصاص دماء التلاميذ والمدرسين جميعًا. عصر الأخذ دون العطاء. واستغلال الحاجة إلى العمل أو المال لفرض الاستسلام وإملاء الشروط.

قال لي أبي:

- المحل يحتاجك، فلا تشغلي نفسك بالوظيفة.

قلت له بعزة نفس:

- إن معي شهادة، ويجب أن أعتمد على نفسي.

- وهل العمل في المحل يعيب؟

- كلا. ولكنني أريد أن أشعر باستقلالٍ ذاتي، ويكون لدي دخلٌ خاص.

- على كل حال. لك ما تشائين، والمحل موجودٌ في كل وقت.

في المحل التقطت فكرة، وأخذت أرددها في داخلي. جاءت إحدى السيدات لتشتري شيئا، وطلبت مني أن أساعد ابنتها في الشهادة الإعدادية بشرح دروس الإنجليزي لوجه الله، فهي فقيرة، والدروس استنزفت ما معها من نقود. وعدت أن أساعدها بعد فترة أرتب فيها أموري على أمل أن أجد وظيفةً ما. ولكن الفكرة بدأت تأخذ مسارًا آخر. ماذا لو أنشأت مركزًا للدروس الخصوصية (يسمونه سنتر)، وأجعل المقابل المادي معقولًا، وأقل من المراكز الشهيرة التي يتزاحم عليها الطلاب؟

يمكن أن استعين ببعض زميلاتي لندرِّس الإنجليزية والفرنسية للبنات فقط، وقد يتم التوسع في المركز فيما بعد والاستعانة بزميلاتٍ في تخصصاتٍ أخرى، ونقرر تخفيضًا أو إعفاءً خاصًا للفقراء والمحتاجين؟

الدروس الخصوصية وباء يضرب أعماق البلاد. المدارس خالية من الطلاب، والمدرسون الرسميون مشغولون بالدروس الخصوصية في البيوت أو السناتر، ووصلت المغالاةُ فيها إلى حدٍ

كبير. والوزارةُ المسئولةُ تتحدث كثيرًا عن تطوير التعليم، وكل فترة يقررون أمرًا، ثم يغيرونه. تتغير الكتبُ والمناهجُ والامتحانات، ويكثرون من الكلام عن الحفظ والتلقين والفهم والاستيعاب، والنتائج في كل الأحوال صفرية.

الطالب الذي لا يحضر في المدرسة لا يمارس النشاط الاجتماعي ولا الثقافي ولا الفني فضلًا عن النشاط الرياضي. كيف يكون إنسانًا سويًا؟

في ندوة عقدتها الكلية قبل عامين حول تطوير التعليم الأساسي، سألت أحد المحاضرين:

- كيف يكون الطالب إنسانًا سويًا، وهو لا يلتقي بزملائه في الملعب ولا يجتمع بهم في نشاطات ثقافية أو فنية أو اجتماعية أو رحلات أو مسابقات؟

أعجب المحاضر بالسؤال. ولكنه لم يجب الإجابة الحقيقية. ظل يلف ويدور، حتى قال زميل لي للمتكلم على المنصة:

- يا دكتور اسمح لي، في الثانوي لا نكاد نعرف بعضنا. أعني طلاب الفرقة أو الفصل. حتى طلبة السنتر لا يعرفون

بعضهم بالاسم وإن كانوا يعرفون الوجوه والملامح.

رد أحد المحاضرين في شبه اعترافٍ خجول:

- لاريب أن الخلل فادحٌ، وأن التجارب المتوالية القائمة على تقليد الآخرين دون مراعاة الواقع، وتفضيل أولوياتٍ أخرى على التعليم، جعل التعليم الموازي -الذي هو الدروس الخصوصية- حقيقةً واقعة.

هكذا انتهى المحاضر من كلامه، وإن كان زميلٌ له فوق المنصة يسعى أن يُرضي السلطة المسئولة عن التعليم كي لا يؤاخذه أحد.

قال زميلٌ آخر من زملائي معقبًا:

- هناك حلٌ سهل، أن نعود إلى نظام التعليم في العهد الملكي، ونضيف إلى الكتب ما استجد من نظرياتٍ وأفكارٍ طوال العقود الماضية، ونحسن استخدام ميزانية التعليم، ونشجع التعليم الأهلي الذي لا يبغي الربح وتقوم به الجمعياتُ الخيرية أو الأهلية. ثم نرفع مرتبات المعلمين الممتازين، ونعزل الضعفاء ومن يعملون بالدروس الخصوصية.

ضحك المحاضرون، وقال أحدهم للزميل:

- هذه ثورةٌ تقلب البلدَ رأسًا على عقب!

بالطبع لم يحدث أي تغيير بعد هذه الندوة، ولا بعد أي مؤتمرٍ حول تطوير التعليم. المسألةُ كلُّها كلامٌ في كلام، وكل مسئولٍ يأتي ينفذ نظامًا أو يحدث تغييرًا له مضاعفاته ومتاعبه، دون أن يستشير أو يتحاور مع المتخصصين.



قلت لأبي:

- ما رأيك في سنتر للدروس الخصوصية؟

هز رأسه مستفهمًا، فقلت:

- في الشقة العليا مكان مناسب للدروس الخصوصية.

- كيف ستعملين؟

- سأبدأ بأي عددٍ من الطالبات، وعندما يزداد العددُ سأستعين ببعض زميلاتي.

- وكيف يعرف الناس أن لديك مركزًا؟

- سأتولى الدعاية عن طريق الزبائن الذين يأتون للمحل. وقد أطبع إعلانًا يوزعه إخوتي أمام المساجد المجاورة.

- على بركة الله.

بدأت العمل بطالبتين إحداهما بنت السيدة الفقيرة، وأخذ العدد يتزايد، حتى جاوز العشرين، فقسمته إلى مجموعتين، كل مجموعة ساعة، وزادت المجموعات، وطلبت بعض زميلاتي للمساعدة.

عرفت نساءٌ كثيراتٌ كن يأتين إليَّ ببناتهن. واتسعت معرفتي ببنات الحارة وما حولها، وبالتبعية صار لدي علمٌ بأحوال الأسر وأخبارها.

ذات يوم قالت لي إحدى الأمهات إن قريبًا لها عائدٌ من الخليج ويريد عروسًا، وقد رشحتك له، ما رأيك؟

كانت مفاجأة لي بعد فترة طويلة من الإخفاق الذي تم في تجربة محمود وتجربة مخلوف. فرحت أسألها بطريقة من يريد أن يتسلى لتزجية الفراغ العاطفي. قلت لها:

- ماذا يعمل؟

- هو الآن يبحث عن مشروع تجاري لأن الوظائف شحيحة.

- أين يسكن؟

- قريبًا في الحارة الثالثة على اليمين؟

- وما وضع أسرته؟

- أبوه رجل طيب وعلى المعاش. يفتح دكانًا صغيرة أسفل بيته. وأُمُّه سيدةٌ طيبة، وأخواتُه البنات تزوجن.

- ومؤهلاته؟

- دبلوم.. دبلوم بعد الثانوية. دبلوم تجاري بعد سنتين.

دار رأسي. من معيد سيحمل الدكتوراه، إلى موظف يحمل بكالوريوس، ويبحث عن ليسانس ليحسن وضعه، إلى دبلوم فوق المتوسط؟ يا ألطاف الله!

قلت للسيدة بغير اهتمام:

- دعيني أفكر.

- فكري براحتك.

عرضت الأمر على أمي من باب العلم بما يقال. لم أكن جادةً في الأمر، ولكنها حدثت أبي، ووجدته مهتمًا، وجاء يشاورني. وسألني:

- ما رأيك؟

- الرأي لك.

- هل أنا الذي سيتزوج؟

- أنت صاحبُ القرار.

- لن أقرِّرَ شيئًا دون رغبتك.

تغيَّر أبي بعض الشيء. ولكن الأمور تساوت بالنسبة لي، فلم أعد راغبةً في شيءٍ أو ملهوفةً على شيء. العمل في الدروس يستغرق معظم وقتي، وإن كان هناك بقيةٌ منه نزلت إلى المحل أطالع الوجوه وأقرأ النفوس. وقد عادت السيدة بعد فترة تسألني رأيي، فوجهتها إلى أُمِّي للاستفسار والتعرف.

بعد يومين جاءت السيدة مرةً أخرى واصطحبت أمي إلى بيت العريس، لتراه من الخارج وتسأل عنه الجيران، وبعد الإجابات المرضية التي تلقتها أمي حددت لأمه وأخواته موعدًا لزيارتنا.

كنت أقف في المحل، والتلفزيون يذيع خبراً مطولًا عن مقتل مطربةٍ لبنانيةٍ في مدينةٍ خليجية، والتحقيقات تجري حول اتهام رجل أعمالٍ شهير، وضابطٍ سابقٍ بأجهزة الأمن. فداخلني إحساسٌ بالتشاؤم. ورأيت أبي ينتقل من المحل الذي يبيع فيه الفاكهة والخضروات ليخبرني، أنه وافق على الزيجة، وأن العريس سوف يأتي للزيارة الليلة، وإذا وافقت عليه فسيعلن ذلك، ويتم الاستعداد

للزفاف بعد شهورٍ قليلة، والانتقال إلى بيت الزوجية.

لم يكن هناك مجال للمناقشة أو الرفض أو القبول. فمازال العريس بالنسبة لي مجهولًا. لا أعرفه، ولا يعرفني، ولقاء الليلة سيكون مهمًا.

رأيته شابًّا معقولًا. ورآني فتاةً مناسبة. وأُعلنت الخطبة، وأخذ كل طرفٍ ينفذُ ما عليه ليتم الزفاف، بعد شهور تم الزفاف في احتفال صاخبٍ وفقًا لرغبة أبي، كأنه يريد أن يعوضَ الإخفاقَ في خطوبة محمود ومخلوف. وقد ذبح عجلًا ضخمًا، ودعا أبناء الحارة ومعارفه من مناطق بعيدةٍ وأقاربَ العريس وجيرانه للوليمة الممتدة، أراد العريس أن يعد الوليمة وفقًا للعادات والتقاليد. ولكن أبي أراد أن يكون صاحب المبادرة والفرح جميعًا. وكان حفل الغناء والطبل والزمر في حارتنا ساهرًا حتى مطلع الفجر.

انتقلت إلى بيت العريس ومضت الأيام الأولى للزواج صافية مثل سماء الصيف في الليالي المقمرة.



٢٠

تبدو لحظات الهدوء والسكينة والرضا نادرة، أو قصيرة العمر، سعدت جدًا في الشهور الأولى للزواج، وزاد من سعادتي تحركُ جنينٍ في أحشائي، سوف أصبح أُمًّا، وأبي يصير جَدًا، وأمي جَدَّة أو «تيتا» بلغة الدلال والرقة. ومع هبوب رياح الخريف وتقلباته، أحسست أن زوجي بدأ يتغير، فهو لا يريدني أن أواصل العمل في السنتر خوفًا على الجنين، وأبي يريدني أن أواصل ليراني كل يوم، ثم إن زوجي لم يصل إلى قرار بعدُ للبدء في مشروعه التجاري، وكان أبي قد اقترح عليه عدة مشروعات، ولكنه لم يستجب له وتردَّد لأسبابٍ مختلفة مما ترك في نفس أبي غُصةً مهدت لفجوة. اتسعت الفجوة والجفوة بين الاثنين مع الشد والجذب في أمور سطحية لا تخص أبي غالبًا. كان والد زوجي مشغولًا في دكانه، ويقفُ شبه محايد، لا يتدخل في شئون ابنه أو أبي.

كان السنتر سببًا أساسيًا في توسيع شقة الخلاف، كنت في

البداية منحازة لزوجي ولكن أبي أشعل النار فأحرق كل شيء، ووضعني في مأزق الانحياز له أو ضده. وأخذ الشجارُ يزداد بيني وبين زوجي، فجمعتُ ملابسي، وعدتُ إلى البيت والمحل والسنتر.

لا شك أن مغادرة بيتي أمرٌ لم أكن أريده. كنت أريد أن كون بجوار زوجي، ومهما اختلفنا فإن وجودنا معًا هو الحالة الطبيعية التي يريدها كلٌ منَّا، ولكن شطحات أبي لا قانون لها. كم أتمنى أن أعود إلى بيتي وأستقر هناك. الجنين يتحرك في أحشائي فيوقظ فيَّ الحياة والأمل، ويجدد صلتي بالمستقبل.

حدثتني زميلةٌ لأسعى من أجل الدراسات العليا، ولكني أرجأت المسألة إلى ما بعد الولادة. وقلت في نفسي: إن الدراسات العليا ستضعني وجهًا لوجه أمام معظم أساتذتي، سوف يتذكرون أنني طالبة الامتياز الغشاشة. هم لا يذكرون طلابًا آخرين غشوا وعوقبوا، ولكنهم يذكرونني أنا، لأني كنت الأولى، والمقدمة على جميع الطلاب. ما أجمل النجاح القائم على الحق، وما أتعس النجاح المزيف الذي يجلب العار والمذلة!

ربما لو واصلت الدراسة في كليةٍ أخرى، لكان الأمر أهون وأفضل. في مثل الظروف الحالية لم تعد الدراسة مجديةً، ولعلي لو تجاوزت الفترة الراهنة جيدًا أفكر في معاودة الكرة مرة أخرى. المهم الولادة، وإصلاح ذات البين مع زوجي، وإرساء دعائم السلام بينه وبين أبي!

سألت أبي عن حالة القلق التي يبدو عليها في الفترة الأخيرة، وهل حدث بينه وبين زوجي ما يزيد من حنقه وغضبه؟

قال باستسلام يائس:

- ليت الأمر كذلك.

- إذا ماذا هناك؟

- تحويشة العمر ضاعت!

- ماذا... ماذا تقول؟

قلتها وأنا في جزع قاتل.

- المرأة...

- أية امرأة؟

- المرأة التي جاءت قبل شهور، وأخذت المال.

- تقصد السيدة التي كانت تحدثك عن المشاركة بربح كبير؟

- نعم!

- ولكنها جاءت بالأرباح أول شهر؟

- انقطعت بعد ذلك.

- ألم تبحث عنها؟

- بلى. حفيت قدماي. ذهبت وبحثت في بولاق كلها. عند من أعرف ومن لا أعرف. وشاركني جدُّك في البحث. ولكن دون جدوى.

- عنوانها كان معروفًا لديك؟

- كان مثبتًا على أوراق الشركة التي زعمت أنها قائمة في العنوان المذكور.

وأردف:

- عندما ذهبنا إلى هذا العنوان، وجدناه بيتا يسكنه عدد من الأسر البسيطة. سألناهم عن الشركة والسيدة المذكورة، فعلمنا

منهم أن عددًا من التجار والموظفين جاءوا ليسألوهم السؤال نفسه، وكلٌّ منهم له مبالغ كبيرة.

- وماذا ستفعل الآن؟

- لا أدري. فقد قدم عدد من الضحايا بلاغاتٍ إلى الجهات المعنية، ولكنهم لم يصلوا إلى شيء.

- يجب أن تنهض وتقدم بلاغًا، وعندما يقبضون عليها يكون لك الحق في استرداد أموالك.

أشاح بيده، وقال:

- لا أظن أن هناك أملًا في استعادة شيء!

- لا تيأس من رحمة الله.

- المصائب لا تأتى فرادى.

- فلتحمد الله على صحتك، وكل شيء يمكن تعويضه.

لأول مرة تبدو الهزيمة قاهرة وسافرة على جبينه. لم أره من قبل في مثل هذا الوضع المأساوي الحزين. كان دائمًا أقوى من المشكلات، يتحداها، ويتجاوزها، وهو شامخٌ راسخٌ مهما كان

على خطأ. إنه الآن يعيش انكسارًا غير مسبوق، فقد غامر بدفعِ كلِّ رصيدِه إلى هذه المرأة المحتالة. لم يتروَّ، ولم يسأل أحدًا من معارفه في بولاق عنها، ولم يكلف نفسه عناء الذهاب إلى مكان الشركة المزعومة، ليتحقق من وجودها أو عدمه. اندفع من أجل الربح الكبير الذي كان طعمًا مغريًا له، وظن أن الإيصالات وتوقيعات الآخرين تكشف سلامة ما تقوله المرأة المحتالة التي أطلقوا على أمثالها تسمية ساخرة «مستريحة»، مقابل ما يطلقونه على أمثالها من الرجال «مستريح». إنها سخرية الشعب المقهور وهو يعالج تقصيره وسذاجته التي تسمى أحيانًا بالطيبة وحسن النية.

قلت في نفسي: أما كان الأجدر بأبي أن ينشئ بمدَّخراته شركة حقيقية مع والده وإخوته، تنتج بضاعة مفيدة، تنفع المجتمع أو يمكن تصديرها، ويفيد منها عمال وموظفون وغيرهم، ثم يربحون منها الرزق المقسوم؟

لماذا أودع رصيده في البنك دون عائدٍ ذي قيمة، ولم يفكر في مشروعٍ ذي عائدٍ يفيد منه أكبر مجموعةٍ ممكنةٍ من الناس؟

إن تحريك الأموال أمرٌ مهمٌ لخدمة المجتمع، وكنزها لا يفيد أحدًا حتى أصحابها. وأنَّى لأبي أن يفهم ذلك؟ بل أنَّى لكثير من الناس أن يدركوا وظيفة المال في خدمة المجتمع كله؟

سمعت بعض المحاضرين في الندوات الثقافية بالكلية، يقول إن الأوصياء على أموال اليتامى يجب أن يقوموا بتشغيلها لئلا تأكلها الزكاة. أي إن بقاءها مالًا مكنوزًا يجعل الزكاة تقللها، وتستنزفها، وهو ما يوجب تشغيلها لتربح وتكسب ثم تخرج منها الزكاة التي تطهر المال وتزكيه، وتنميه.

أبي لم يخرج زكاةً أبدًا، مع أنها حقٌ معلومٌ للسائل والمحروم، ولم يقدم صدقةً لفقيرٍ أو محتاج، مخافةَ أن ينقص مالُه، والحديث الشريف يعلنها صريحةً «ما نقص مالٌ من صدقة» إذا كان المال يمضي في طريقه المعهود بتشغيله وإفادة الناس منه في التجارة والصناعة والزراعة وغيرها.

كنت أريد أن أقول له، ادفع حق الله وستجد الرزق المقسوم. ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

وأقرأ له قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ﴾.

ولكن أبي ومثله كثيرون يعتقدون أن كنز المال وعدم الاقتراب منه سيضمن لهم الأمان والطمأنينة. وها هي الست «المستريحة» تنسف كل شيء، وتذروه في عالم المجهول، ولم تبق إلا الحسرة والأسى والقهر الذي لا يبرح النفس والصدر؟

صدق الله إذ يقول:

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾.

تشغيل المال يفيد صاحبه، ويفيد المجتمع، ويوفر فرص عمل للشباب، والزكاة تطهر المال وتزكيه وتنميه، وتنشر الخير في كل مكان.

بيد أنِّي لا أستطيع أن أحدثه عن شيء من هذا فهو يحب المال حبًا جمًا، ويعتد برأيه فلا يستشير أحدًا ولا يسأله النصيحة، حتى في علاقاته الاجتماعية، يبدو حادًا وانفعاليًا ومتسرعًا في قراراته، وهو ما حدث مع محمود ومخلوف، ومع زوجي أيضًا، حيث يحاول أن يتعامل معه بمنطق السيد الآمر الذي ينبغي أن يطيعه

العبد المأمور، وينفذ كلامه بلا تردد، وهو ما وضعني في مأزقٍ صعبٍ لا أعرف كيف أخرج منه أو أتفادى مضاعفاته.

جاء بعض الناس من طرف زوجي للمصالحة، وجلسوا معه، وأوشكوا أن يتمموا الصلح، ولكنه لخلاف حول شيء ما اشتبك مع زوجي، وسبه بألفاظ مقذعة، فما كان من الآخر إلا أن ردَّ عليه بالمثل، فأقسم أبي بالطلاق أن ابنته التي هي أنا لن تعيش معه. فكان طلاق وكانت المأساة التي أعيشها اليوم!





شارفت أيام الحمل نهايتها، وأخذت أمي تعد لاستقبال المولود الجديد. قالت الأشعة التلفزيونية إنه سيكون ولدًا ذكرًا، فرحت في داخلي، وسادت الفرحة البيت كله. كانت الولادة قبل عقود طبيعية دون تدخل جراحي. في أيامنا هذه، يعمل الأطباء على أن تكون الولادة جراحية، أي بشق البطن لاستخراج الجنين، ثم إغلاقها بالخيوط الطبية، طبعًا التكلفة عاليةٌ عكس الولادة الطبيعية، ويقال إن أكثر من ٧٠٪ من النساء يلدن الآن جراحيًا، بحكم أن المسألة صارت موضةً تطلبها الحوامل كي لا يعانين بعض الشيء في الولادة، ويحرص عليها الأطباء التجار كي تزداد دخولهم.

لا أعرف هل سألدُ طبيعيًّا، أو جراحيًّا؟ ولكن الطبيب الذي أتابع معه أخبرني أن عليَّ دخول المستشفى الذي يُجري فيها عمليات الولادة، وهناك سيرى إذا كانت الولادة طبيعيةً أو جراحية.

أخبرت طليقي أنني سأدخل المستشفى في أية لحظة عندما

تحين نذر الولادة. فتمنى لي النهوضَ بالسلامة. قلت له:

- ألا تريد أن ترى ابنك؟

غاب صوته لبعض الوقت، ثم قال:

- إن شاء الله.

وأغلق الهاتف. فشعرت بهواني عليه، وهوان ابنه أيضًا.

قرر الطبيب أن الولادة صعبة، ولا بد من جراحة. وبعد فترة لا أعرف طالت أم قصرت وجدتني أستيقظ في المستشفى، وبجواري مخلوقٌ جميل نسيت الدنيا كلها من أجله. كانت أمي بجواري، وأبي يقف أمامي. الابتسامة على وجهيهما. الدنيا لا تسعهما من الفرح.

والد الطفل هو الغائب الذي لم يحضر.

من المؤكد أن أبي يحبني، ويحب إخوتي، ويتمنى لنا أن نكون أسعد الناس، ولكنه بطبيعته العنيدة المتعجرفة يتسبب لنا في متاعب لا حد لها، ويضعنا في مآزق لا مخرج منها، ونحن نتحمل جزءًا من المسئولية لأننا لا نعارض أخطاءه بصلابة، ونستنكرها همسًا دون أن نتخذ موقفًا عمليًا، فهل بات هذا الأمر قدرًا لا فكاك منه؟

باغتني بسؤالٍ بات شغله الشاغل الذي قرأته على وجهه:

- أي اسم اخترتِه له؟

قلتُ له دون إدراك لما سيحدثه كلامي:

- لابد أن يكون أبوه شريكًا في التسمية.

- لاحق له في ذلك. لقد ألقاكِ في الطريق.

ذكرته بما فعل:

- ألم تحلف بأنني لن أعيش معه.

- أجل، ولكنه طلقك وقطع كل صلةٍ بك.

- إنه ابنه يا أبي.

- منذ الطلاق صار ابنك وحدك.

- ولكنه سيحمل اسمه شئنا أم أبينا.

نظر إليَّ بغضب، وكأنني تحديته لأول مرة:

- وهل سيحضر بسلامته ليسميه؟

- سأتصل به.

ضغط على أسنانه، ولوح بيده غاضبًا، واستدار خارجًا من الغرفة، بينما لزمت أمي الصمت المطبق، كأنها مع فرحها بالمولود تبكي حظه العاثر، وحظي النكد، ولكنها لا تفصح ولا تبين كما علمتها حياة الريف الصبر والتحمل.

مضت فترةٌ قصيرة، ورنَّ هاتفي وسمعت صوت زوجي يسألني عن اسم المستشفى ورقم الغرفة التي أقيمُ بها. فهمت أنه قادم ليرى ابنه. أخبرت أمي، فظهرت علامات الرضا على وجهها، ولكنها لم تعلق، وكانت عيناها تتأملان الطفل وتتفحص ملامحه. هذه جبهة أبيه، وهذا أنف جده، وهذان أذنا أبيك، وهذه... تلمس يده، وترفعها بحنان لتقبلها، وتتفرس في أصابعه وطيف ابتسامة هاربة تعبر شفتيها. كانت قد أحضرت موقد غاز صغير وبعض الأواني فراحت تغلي الحلبة، وتغلي بعض المشروبات، وتسقيني جرعةً فجرعة، لا تكتفي بما تقدمه المستشفى، ولكنها تنفذ ما تعلمته من أمها التي هي جدتي.

جاء زوجي ووالدُه وأمُّه، حملوا معهم بعض الملابس للمولود. جلسوا مع أمي وكانوا سعداء بالطفل، وقبلوه، قلت لزوجي:

- اختر له اسمًا.

- ألم تختاري؟

- أنت أبوه.

قال والده الذي هو جَدُّ الطفل في لهجةٍ تصالحية، وطيبةٍ تميزه:

- فليكن اسمه محمدًا.

ثم أضاف:

- وليعش بينكما بعيدًا عن وجع الدماغ.

وتلاقت النظرات التي في الغرفة، وقال زوجي:

- على بركة الله.

ومع حديث العتاب، كان قراري الداخلي أن أعود إلى بيتي مع زوجي، مهما كان موقف أبي المتعنت. يجب أن أبني حياتي لا أهدمها. ليست هناك أسبابٌ جوهريةٌ تجعلني أعيش مطلقةً بسبب خلافاتٍ لا تخصُّني ولا تعنيني. أبي يتصرف بمنطقٍ غير مقبولٍ في معظم الأحيان. يريد فرض وصايته على كل من حوله، ويتخذ

مواقف لا مسوغ لها. سأطلب من زوجي أن يعيدني إلى بيتي، ليتربى ابننا بيننا، وليهدد أبي بالقطيعة ما شاء له التهديد، فإن أمي قريبة إلى تفكيري، ولن تقاطعني، وهو سيستسلم في النهاية.

بعد انصراف عائلة ابني، قلت لأمي:

- ما رأيك في كلام الرجل الكبير- أقصد حماي؟

- كلامٌ طيب.

- وابنه وافق.

- الصلح خير يا ابنتي.

- ولكن أبي!

- سيهدأ.

- سيعدُّ ذلك هزيمة.

- بين الرجل وزوجته لا مكان للانتصار والهزيمة. المهم الأبناء.

- هل تتحدثين معه؟

- سأفعل.

في المساء حدثني زوجي، وقال لي:

- سأحضر المأذون إلى المستشفى.

قلت له وكأني أستنكر استعجاله:

- اصبر حتى نعود إلى البيت!

في الصباح جاء إلى المستشفى ومعه سيارة، وكانت أمه معه، وحملت الطفل، وجمعت أمي متعلقاتي، وحملها زوجي، وحضر المأذون إلى البيت، وأعاد العلاقة الشرعية.

عرفت أن أبي غضب، وأقسم أن يقاطعني، ولكن أمي حاولت تهدئته، وراحت تعدد له فوائد الصلح على الطفل الوليد. فأصر على المقاطعة لزمنٍ طويل.

كان ابني يكبر أمام عينيَّ، وأمي تزورني من حين لآخر، وزوجي أسس مشروعًا تجاريًا وراح يعمل ويربح، بعيدًا عن وصاية أبي، ولكني حننت إليه، وتمنيت أن يرى حفيده أو سبطه بمعنى أدق، كان الطفل يحاول أن يجلس، وأخذت ملامحة تتشكل ليكون أقرب إلى أبيه تمامًا، وقد ملأ عليَّ دنياي تمامًا. لم أعد أذكر الكلية، ولا محضر الغش، ولا المعيدة ولا الدكتورة، حتى السنتر،

لم أفكر فيه، زوجي يوفر لي ما أحتاجه ويحتاجه الطفل، وهو بار بوالديه، على العكس من أبي الذي كان يفاخر أنه يستريح لدى حميه وحماته أكثر من والديه، وهو ما استنكرته في حينه، وساءلته، كيف تفضل والدي زوجتك على والديك؟ فحاول التنصل مما يقول ويفاخر بأنه يمزح، ليغيظ جدي عبد الراضي الذي لا تعجبه تصرفاته ويحاول بحكم الأبوة أن ينصحه ويوجهه إلى الرضا بما قسم الله، والتخلي عن العناد والعجرفة التي قادته إلى العديد من الأخطاء.

كنت أتابع التلفزيون، فشاهدت برنامجًا يتناول قضايا المحتالين أو «المستريحين» كما يسميهم عامة الناس ساخرين، وجاءوا في البرنامج برجل أمن يتحدث في الموضوع، فأخذ يحذر المواطنين من هؤلاء الذين يضحكون على الناس بإغراءات وقتية، ثم يهربون بما استولوا عليه من أموال، وقال الرجل: «إن أغلب هؤلاء يزوِّر عددًا من بطاقات الهوية بأسماء مختلفة، كي لا يطالهم القانون. وبعضهم يهرب إلى خارج البلاد، ولكن الأجهزة المعنية تخطر الشرطة الدولية (الإنتربول) للقبض عليهم وترحيلهم إلى مصر، ولكنهم للأسف يضعون هذه الأموال في بنوك خارجية،

أو يسلمونها لعصابات يعملون لحسابها، وحين يقبض على أحدهم فلا يملك القانون إلا حبسه، وبيع ما يمتلكه على أرض مصر إن وجد»

ثم أضاف رجل الأمن مجموعة من الأسماء التي تم القبض عليها في السنوات الماضية، ومن بينها السيدة التي احتالت على أبي، ولكنها فيما يبدو لم تكن تحمل مالًا أو تملك شيئًا في مصر!

عوضك الله خيرًا يا أبي. فالمستريحة لن تعطيك شيئًا، وإن كانت ستقضي في السجن سنواتٍ طوالًا، يعلم الله هل ستخرج حيةً أو ميتة. تجد أموال الضحايا لدى شركائها المجهولين، أو تتكفف الناس لتأكل وتشرب.

ذات ليلة أخبرني زوجي أن والده اقترح عليه أن نزور أبي ليرى حفيده، ولتزول الجفوة التي حدثت بيننا وبينه، على أن نمهد للزيارة عن طريق أمي التي تزورنا من حين لآخر. فقد تأخذه العزةُ بالإثم، فيشعل نارًا يصعب إطفاؤها.

نجحت أمي في التمهيد، وقد قبلت رأس أبي، وأعطيته الطفل، فاحتضنه، وقبله، واستقبل الزيارة بهدوء ورضًا، وتجاهلنا ما كان لنبدأ ما يكون!

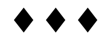
عاد محمود من فرنسا، وصار مدرسًا في قسمه بالكلية، ويستضيفه التلفزيون والإذاعة والصحف، ويبدو أنه تزوج، بعد أن عاد سيرته الأولى صحيًا، كما تظهر ملامحه على الشاشة. ولا أعرف ما ذا جرى لمخلوف الذي رفض أي اتصال معي، ولعله هو الآخر تخرج وتزوج، أما أنا فلم يعد أبي يناديني بالدكتورة، فهو الوحيد الذي خرج من المولد بلا حمص.

أما محمد فهو بهجة حياتي وزهرة عمري، التي عوضني بها ربي، ولا أجد غير هذا الدعاء النبوي الكريم الذي حفظته مؤخرا، وأردده باستمرار:

«اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض، لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهنَّ، أنت الحق ووعدك الحق، والجنة حق والنار حق، والنبيون حق والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت واليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت... أنت إلهي لا إله إلا أنت».

ثم أضفت شيئا من عندي:

«اللهم بارك في ولدي، واجعله رجلًا صالحًا من أوليائك، عاملًا من أجل العلم والخير والنور. ومتعه بالصحة والعافية ونور البصيرة يا رب العالمين.



تمّت

المجد: صفر ١٤٤٠هـ = نوفمبر ٢٠١٨م.

